فتحية چتين

جدّتي

مذكرات أرمنية - تركية

ترجمة
كيڤورك خاتون وانيس



FETHIYE ÇETIN

ANNEANNEM

anlati

metis

فتحية چتين

جدّتي

مذكرات أرمنية - تركية

ترجمة:
كيڤورك خاتون وانيس

دار الفارابي

الكتاب: جدّتي
المؤلف: فتحية چتين
ترجمة: كيڤورك خاتون وانيس
صورة الغلاف: من أرشيف المؤلفة

الناشر: دار الفارابي بيروت لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠٢١
ISBN: 978-614-485-090-0

إلى الشجاعة والحكمة والإنسانية...

إلى هرانت.

قلّما تجتمع في شخصية واحدة وبالمقدار نفسه: مواقف شجاعة ورؤية حكيمة وآراء سديدة وإنسانية عالية. هذا هو هرانت دينك الصحفي الأرمني-التركي، مؤسس ورئيس جريدة آغوس الصادرة باللغتين الأرمنية والتركية، والذي تم اغتياله عام ٢٠٠٧ في إسطنبول أمام مكتب جريدته.

لم يذكر التاريخ أن شخصية استطاعت أن تغيّر نظرة عدد كبير من الأتراك، النخبة والعامة، إلى المسألة الأرمنية بشكل جذري بمقدار ما أحدثته شخصية هرانت إلى درجة دفعت الآلاف منهم للسير في جنازته وسط إسطنبول حاملين لافتات كُتِبَ عليها: كلنا هرانت.... كلنا أرمن!

كيفورك

عسى أن تكون تلك الأيام قد ولّت إلى غير رجعة

كلما قرأت أو سمعت عن هذا النوع من المظالم الفظيعة التي جرت ولا تزال تجري بين أبناء البلد الواحد تتملكني مشاعر حزن عميقة لا تفارق مخيلتي ووجداني وعقلي، ترافقها سؤالان أولهما حول مرد هذه التعامل القاسي بين أبناء البلد الواحد، وثانيهما حول السُبل الكفيلة بعدم تكرار مثل هذه المظالم، أو بحسب تعبير الجدة هيرانوش/ سهر في هذه المذكرات: «عسى أن تكون تلك الأيام قد ولّت إلى غير رجعة».

بمراجعة بسيطة لهذا النوع من المظالم في بلدان مختلفة نلاحظ وجود عامل مشترك بينها: إنها جميعاً دول إيديولوجية أو عقائدية.

فالايديولوجيا (قومية، دينية، مذهبية، مادية،............الخ) هي منبع أخطر أنواع العنصرية وأبشعها وأقساها إذ أن المشحونين بها لا يقبلون الاختلاف والتنوع الموجود في مجتمعهم وبلدهم. ولا يتوقفون عند حد الرفض بل يتجاوزنه إلى استخدام أسوأ أنواع المظالم (تكميم أفواه، سجون، معسكرات اعتقال، نفي، تهجير، تصفيات جسدية..............) بحق أبناء بلدهم!

حدث هذا في أماكن مختلفة من العالم قديماً وحديثاً، منها من تخلصت منها منذ فترة طويلة (دول الغرب)، وأخرى بدأت بالتخلص منها بعد سقوط جدار برلين (دول أوروبا الشرقية)، لكن للأسف الشديد مازالت دول كثيرة ومن ضمنها نحن دول الشرق، ترزح تحت حمولتها.

فهل من مخرج من دوامة التعامل العنيف بين أبناء البلد الواحد، بمعنى آخر هل من سبيل للتخلص أو التخفيف من شحنات الإيديولوجيا؟

وإلى أي مدى يمكننا الاستفادة من تجارب الدول التي سبق وأن عانت مما نعانيه اليوم، أم أن عامل الزمن أمر حتمي في تخمّر الحل؟

لا شك بأن هناك الكثير من النظريات التي تطرح أفكاراً وخططاً تتطلب تطبيقها آليات على مستويات معقدة، لكن ثمة أمر بسيط لكنه برأيي المتواضع، فعّال ويمكن البدء به مباشرة وعلى المستوى الشخصي، ألا وهو استبدال مفهومي: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب - اللذان يتم تطبيقهما بين أبناء المذهب الديني الواحد أو أفراد الانتماء القومي الموحد أو رفاق الفكر الإيديولوجي الأوحد - بمبدأ الوقوف إلى جانب المظلوم وإدانة الظالم بغض النظر عن منبتهما أو انتماءاتهما.

كيفورك

كلما جال في خاطري شهر كانون الثاني من ذلك العام، تنتابني رجفة داخلية؛ أشعر بالبرد. وأبدأ بالتألم في مكان ما بداخلي. حينما كانت أمي تريد إعلامنا بالألم الشديد الذي تعانيه، كانت تضع يدها على الجهة اليسرى من صدرها وتقول، 'من هنا أتألم، حول هذه النقطة.' وأنا الآن مثلها أتألم بالطريقة نفسها تماماً في مكان ما عميق داخل قلبي.

الجدران العالية التي تسوّر فناء المسجد البارد، مبنيّة من أحجار ضخمة اسودّت بفعل الزمن لكنها غير منقوصة؛ المصلى الحجري، الذي يوضع فوقه النعش، البارد كالجليد يثير القشعريرة بمجرد النظر إليه. لقد تم نحت البلاطة وقاعدتها من الحجر الضخم نفسه. القاعدة باردة إلى درجة أنني عندما ألمسها، أخشى على يدي من التجمد لذلك أتراجع. كأنما تم تصميم هذا الفناء - هذه الحجارة الجسيمة، وهذه الجدران الضخمة - لغرض واحد فقط وهو جعل الإنسان يشعر بالعجز والبؤس.

حتى يومنا هذا كلما رأيت أي مصلى حجري، أرتعش، بصرف

النظر عن الطقس، وعادة ما أغادر ذلك المكان مباشرةً. وفي حال كنت مجبرة على البقاء، فإن كل تلك الصور - فناء المسجد، المصلى الحجري، البرد القارس- تعود وأبدأ بالارتجاف.

كان الوقت مساءً عندما اتصل إيمراه وقال: 'لقد فقدنا جدتنا'. لقد أيقنت الآن بأنها توفيت فعلاً. في صباح اليوم التالي بدأت النساء بغسل جسدها في غرفة خاصة في المدفن، تبعاً لطقوس الغسل (يسمونه غرفة التغسيل؛ تعبير آخر يدخل القشريرة في داخلي) وعند الانتهاء من ذلك، يدعوننا بحيث نقوم بإلقاء نظرة الوداع الأخيرة. فقمتُ بوداع جسدها البارد وقبلتها على وجنتيها. مازالت شفتاي تشعران بتلك البرودة التي لا تليق بجسمها. رغم أنني أعلم جيداً بأنه قد تم وضعها داخل التابوت لكنني مع ذلك لا أستطيع تقبّل ذلك. أشعر وكأن كل ذلك عبارة عن حلم. لا أستطيع التصديق أن جدتي مستلقية بلا حول ولا قوة داخل ذلك التابوت. هذا بالإضافة إلى عجزنا ونحن نتابع كل هذا.

كنا ننتظر مع النساء اللاتي تجمعن معاً في أكثر زاوية محمية من فناء المسجد. وبينما نحن على هذه الحالة من العجز، نبكي بلا ضابط كلماعانقنا قادم جديد، اندفع أحدهم من جموع الرجال باتجاهنا وبصوت مخيف، سأل:

«ما هو اسم والد ووالدة الخالة سهر؟»

في البداية لم ترد أيٌّ من النساء. بل بدلاً من ذلك تبادلن النظرات عندما أصبح الصمت ثقيلاً للغاية. وبقي الصمت مستمراً، حتى قامت إحداهن،هي خالتي زهرة، أخيراً بكسره:

'اسم والدها حسين، واسم والدتها أسمى.'

بمجرد نطق خالتي لهذه الكلمات استدارت نحوي كما لو أنها تبحث عن مصادقة عليها، أو هكذا بدا لي.

بعد شعوره بالارتياح لاستخلاص الجواب الذي يريد من مجموعة النساء الكتومات تلك، استدار الرجل إلى الخلف باتجاه حشد الرجال المجتمعين حول القبر، وبينما هو يقوم بذلك، انطلقت من قلبي الكلمات التالية مخترقة الصمت:

'لكن هذا غير صحيح! اسم أمها ليس أسمى، بل إسكوهي؛ واسم أبيها ليس حسين بل هوفانيس!'

وبينما كان هذا الرجل، الذي تكفل بتزويد الإمام باسمي الوالدين المتوفيين، يهمّ بالقيام بذلك، أعلنتُ زيف هذه الأسماء؛ فاستدار باتجاهي وحدق بنظرة عدائية وهو يحاول جاهداً فهم ما قلته.

بدأت خالاتي بالبكاء. ثم تبعتهن بقية النساء، كما لو أن خالاتي أعطتهن إشارة. يبدو أن البكاء معد. أنا أيضاً لم أستطع إيقاف دموعي. بقيت صامتة، قلقة من أنني قد أتسبب ببكاء المحيطات بي أكثر في حال كررتُ ادعائي أو إصراري على كلماتي. حنيت رأسي لأنني كنت أبكي في داخلي، خجلة بأنه حتى هنا نحن مضطرون إلى الاستمرار في التظاهر.

حدّق الرجل مطولاً إلى مجموعة النساء الباكيات، وثم رمقنا كما لو أنه يقول « نساء!» وهو يبتعد عنا.

للسبب نفسه الذي من أجله لم يكن اسم أمها أسمى، ولم يكن اسم أبيها حسين، كذلك لم يكن اسم جدتي الحقيقي سهر، بل هيرانوش. هذا أيضاً ما اكتشفته متأخراً جداً.

في فترة طفولة هيرانوش، كانت هاباب (Habab)[1] قرية كبيرة تضم ٢٤٠ مسكناً، واقعة ضمن حدود بالو(Palu) ومنطقة ايركاني- مادين (Ergani- Maden). كانت القرية تفخر بكنيستين ومقبرة.

كانت هيرانوش الطفلة الثانية لـ إيسكوهي وهوفانيس[2] غاداريان. وقد نالت رعاية كبيرة كونها ولدت بعد وفاة مولودهما البكر مارغريت. بعدها رُزقا طفلين آخرين. عندما كانت هيرانوش بنتاً صغيرة، كانت تساعد في الاعتناء بهذين الطفلين، خورين وهيراير.

كان ترتيب هوفانيس، والد هيرانوش، الثالث بين سبعة أطفال، وواحداً من ستة ذكور. كان اسميّ أخويه الأكبر بوغوص وستيبان، وأسماء أخوته الأصغر، هرانت وكرابيت ومانوك، واسم أخته الوحيدة زاروهي. كانت العائلة قد بدأت تكبر بعد زواج الأخوة الكبار. عندما

(١) كانت معروفة باسم حاباب، اسمها الأرمني الصحيح هافاف. اسمها الحالي اكينوزو(Ekinozu) وتتبع منطقة كوفان جيلار (Kovancilar).

(٢) يظهر هذا الاسم في الإنجيل بـ هوفانيس. في الأناضول وحدها، هناك عدة تنويعات مثل، أوفانيس، أوفانييس، أوهانيس.

كان مانوك طفلاً أصيب بمرض غير معروف أنهكه تماماً لفترة طويلة. كانت كل القرية تقصد الكنيسة للصلاة من أجل شفائه لكن دونما جدوى. لكن تماماً قبل فقدان الأمل الأخير، عاد مانوك إلى الحياة. فاحتفلت كامل القرية بذلك، كون عائلة غاداريان من أهم العائلات.

كان هايرابيد أفندي، جد هيرانوش، معلماً يحظى باحترام كبير، معروفاً ومحبوباً في كل أنحاء بالو وضواحيها، كذلك في ارغاني- مادين وكيغي (Kiğı). كان معروفاً بكونه رجلاً صالحاً؛ يستمع إليه الناس. في تلك الأيام كان في ارغاني- مادين وكيغي مدارس يقصدها الأولاد بعد إنهاء المرحلة الابتدائية. كان هايرابيد أفندي يدرّس في تلك المدارس. كما كان وكيل الكنيسة وقائداً لكورسها الموسيقي. لقد قيل بأن أخاه، أندرياس غاداريان، كان معلماً مميزاً ومعروفاً أكثر منه. عندما كان الناس يجدون صعوبة في قراءة نصوص أرمنية قديمة، كانوا يطلبون مساعدته. مهما بلغت صعوبتها، كان أندرياس قادراً على فكها بسرعة فائقة. في كتابه: *Palu and its Traditions: its education and its intellectual life*[1]، كتب الأب هاروتيون سركيسيان هذه الكلمات عنه: 'كان المعلم أندرياس غاداريان ابن الأناضول.... قصير القامة قليل الكلام، لكن عينيه اللامعتين تحت حواجبه السميكة تشعان ذكاءً أدهش كل هؤلاء الذين قابله من اللحظة التي تعرفوا فيها إليه.'

كانت عائلتا غاداريان وأرزومانيان كبيرتين ومتجذرتين في هذه

(١) بالأرمنية، نُشرت في القاهرة في ١٩٣٢.

القرية. كان هوفانيس من عائلة غاداريان مغرماً بابنة جارهم الكبرى من عائلة أرزومانيان، التي كانت تحمل اسم أمه نفسه، إسكوهي؛ في أحد الأيام سأله والده فيما إذا كان يرغب في الزواج بابنة جارهم. فأجاب بـ 'نعم' دون تردد؛ كان فرحاً إلى حد أنه يكاد يحلّق من الفرح. كانت إسكوهي تصغره بست سنوات، ومن عائلة كبيرة أيضاً. كانت هي الكبرى بالإضافة إلى شقيقين وأربع شقيقات أصغر منهما. بعد هايك وسيربوهي ولد توأم بنات، زاروهي وديروهي. كانت أصغرهن تدعى سيرانوش.

كانت تاكوهي، والدة إسكوهي، معالجة القرية. لقد قيل بأنها كانت تمتلك معلومات تضاهي معرفة طبيب، وخصوصاً في حالات الكسور حيث كان يقصدها أهالي قرى المنطقة بأكملها.

كانت علاقة العائلتين جيدة للغاية، لذا كان الجميع مؤيداً لزواج هوفانيس بإسكوهي؛ كانت علاقة حب متبادلة، وكانت هيرانوش مولودتهما الثانية. كان أشبينها في المعمودية هو ليفون إيليان، الذي كان أجداده أشابين للعديد من عائلة غاداريان على مر السنين.

كانت هيرانوش طفلة سريعة التعلّم، وذواقة للموسيقى أيضاً. ولأنها كانت تحب الغناء، فإن ذخيرتها الفنية كانت في تطور دائم، كما كانت تحاول تعليم شقيقاتها وأشقائها وأبناء وبنات أعمامها كل ما تتعلمه. لكن كانت ثمة أغنية أحبتها أكثر من أي أغنية أخرى، وكانت ترددها بشكل متكرر كلما استطاعت. وعندما كان جدها يجلسها في

حضنه كي يعلمها أغاني جديدة، كان يمسد شعرها تعبيراً عن مدى إعجابه بطريقة أدائها. عادة ما كانت هي التي تبدأ الألعاب؛ كانت القائد، التي تشرح الطريقة، وبقية الأطفال كانوا سعداء بذلك.

في عام ١٩١٣، بدأت هيرانوش الذهاب إلى المدرسة، وهو نفس تاريخ مغادرة والدها واثنان من أعمامها إلى أميركا للبحث عن عمل وادخار ما يكفي من المال وإعداد أنفسهم للدخول في مجال التجارة كما فعل عدد من أقاربهم من قبلهم. في تلك الأيام، كان الكثير من رجال القرية يحلمون بالذهاب إلى أميركا للعمل بين الأغنياء وكسب المال والتحول إلى أغنياء أيضاً. كان العم بوغوص هو أول من غادر، تبعه العم ستيبان. تلاهما في خوض تلك الرحلة الطويلة والصاخبة أبوها وعمها هرانت.

بدأت هيرانوش المدرسة في السنة نفسها مع ابنة عمها مريم، وحالما تعلمت الكتابة والقراءة، كتبت رسالة إلى والدها وأعمامها. مريم أيضاً كتبت رسالتها على الوجه الثاني من الورقة نفسها التي تم إرسالها إلى أميركا.

هذه أسطر كتبتها هيرانوش على الجهة الخاصة بها من ورقة الرسالة:

أبي الحبيب، أعمامي الأعزاء،

نأمل أننا باستخدام أقلامنا الصغيرة نستطيع تدوين بضعة أسطر ونخبركم عن أحوالنا لأننا نعلم بأن ذلك سوف يسعدكم.

نتمنى أن تكونوا بخير، وسنبقى مستمرين بهذه الأمنيات والصلاة لتبقوا بخير. ونحن نذهب إلى المدرسة كل يوم ونفعل كل ما في وسعنا لكي نكون أطفالاً مؤدبين.

أقبل أياديكم، وكذلك يفعل خورين، هيراير، جيراير ومريم.

آنا مشتاقة لك كثيراً وترسل لك القبلات.

هيرانوش غاداريان

جيراير المذكور في الرسالة هو أخو مريم ابنة عمها ستيبان. آنا هو اسم أمها إسكوهي المستخدم ضمن العائلة. على الجهة الثانية من الورقة، كتبت مريم ما يلي:

أبي الحبيب، عمي المحترم،

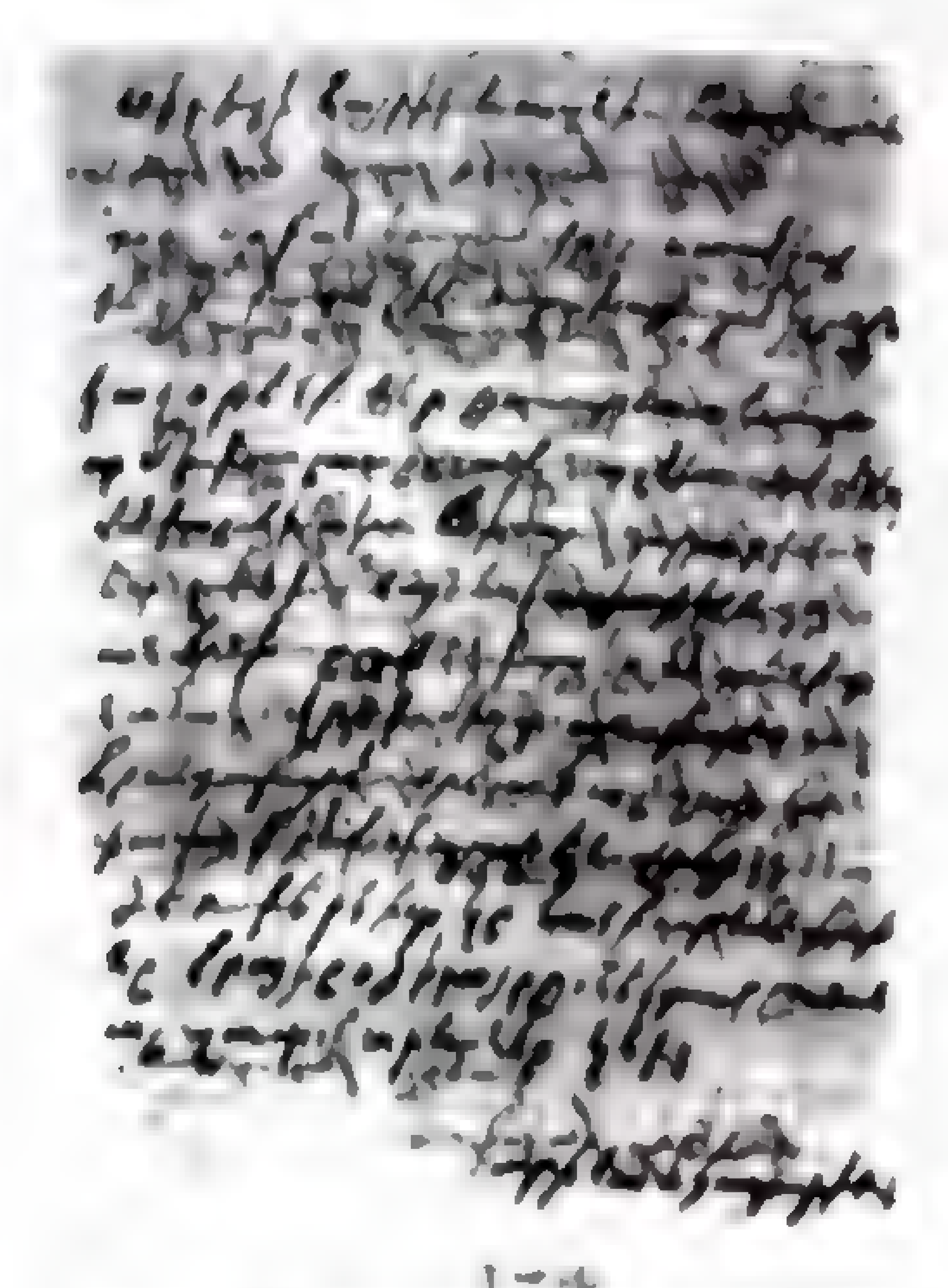
أود أن أكتب بضعة أسطر وأخبركم عن أحوالنا، لأنني أعتقد بأن ذلك يسعدكم. نحن نصلي من أجل أن تكونوا بخير، بحيث نصبح نحن أيضاً سعداء. الآباء الأعزاء والمحترمين، ثقوا بأننا لا نتغيب أبداً عن المدرسة وأننا ندرس بجد ونشاط.

لا تقلقوا. لكننا نرجو منكم الاستمرار في إرسال الرسائل. طلبنا من أخي الكبير أوهان وأخي هرانت أن يكتبا رسائل أيضاً، لكنهما لا يفعلان.

أقبل أياديكم. كما يرسل إليكم التحيات كل من خورين، جيراير، نيكتار، وآنا.

مريم غادرايان

بهذا الشكل أرسلت هيرانوش ومريم، بنات الأعمام، أخبارهن السارة إلى آبائهن وأعمامهن على وجهي الورقة نفسها. لكن يمكن بسهولة تمييزالخط الجميل على أحد الوجهين. كلماتها تشبه الجواهر الخالية من العيب؛ إنها مصوغة بيد هيرانوش.



رسالة هيرانوش ومريم؛ على أحد وجهي الورقة كلمات بخط هيرانوش، وعلى الوجه الآخر كلمات بخط ابنة عمها مريم. وُجدت الرسالة في محفظة هوفانيس بعد وفاته. للترجمة انظر الصفحة السابقة.

كان هوفانيس وإسكوهي يحبان الرقص، وفي كل احتفال في القرية كان لا بد أن يوجدا هناك؛ يذوبان في إيقاع الموسيقى ويرقصان الـ هلايّ (*halay*) ساعات دون توقف. استمرت إسكوهي، حين غادر زوجها إلى أميركا، في حضور أفراح الزواج والاحتفالات الأخرى في القرية برفقة عمها لكي ترقص معه الـ هلايّ.

كان قدوم الدراويش المتصوفين إلى القرية واحداً من أكبر الاحتفالات في ليالي الشتاء الطويلة؛ كان القرويون يشكّلون حلقة حول الدراويش ويتابعونهم برهبة ودهشة وإعجاب وهم يؤدون الألعاب بأسياخهم ومجامرهم المحترقة. كانوا يغرزون أسياخهم الحديدية في أحد الخدين لتخرج من الخد الثاني دون أن تسيل قطرة دم واحدة. ويضعون المجامر المحترقة على أذرعهم دون أن تُصاب أيديهم وأذرعهم بأية حروق. كانت هيرانوش تجد كل هذه العروض مروعة. في أحد الأيام، بينما كانت في المدرسة، احترق أخوها خورين بالماء المغلي وكانت هناك حروق مروعة على النصف الأيسر من صدره وعلى ذراعه اليسرى. عندما نظرت هيرانوش إلى الحروق على جسد أخيها، وجدت صعوبة في تصديق ما يقوم به الدراويش، وقضت ساعات طويلة في الليل محاولة فهم ذلك.

عاشت عائلة غاداريان في بيت فسيح مكوّن من طابقين يضم عدة غرف وحديقة كبيرة. كانت هناك ثمة صداقة جميلة بين هيرانوش والكلب الذي يحرس البيت حيث تستمتع باللعب معه. بعد مرور

عشرات السنين، ظلت تكرر بحسرة ، مرارًا وتكرارًا، ذكرياتها عن هذه الحديقة والألعاب التي لعبتها فيها مع أبناء وبنات أعمامها والكلب. نظراً إلى كون قسم كبير من رجال العائلة في سلك التعليم والقسم الآخر قد رحل إلى أميركا، فقد كانوا يستعينون بعمال موسميين للاعتناء بالحقول والمحاصيل؛ كان أولئك العمال واثنان من خدم المنزل يقيمون في غرف مطلة على الحديقة. كانت العائلة تقضي الشتاء في المنزل في القرية، وفي الصيف ينتقلون إلى المروج الجبلية.

كان في بيت غاداريان، كالعديد من العائلات الأخرى في القرية، عدد من أنوال النسيج، التي تُستخدم في صنع البسط وأغطية ملونة للمائدة. لاحقاً تتذكر هيرانوش بتأثر كيف كان جدها، الذي انتقل إلى القرية بعد التقاعد، يجلس أمام نول النسج محاولاً تطبيق تصاميم جديدة، وكيف كان يقرأ الإنجيل كل مساء.

كانت عائلة غاداريان مكتفية وسخية، يكرمون ضيوفهم دائماً على أكمل وجه. كان الناس باستمرار يقصدون هايرابيد أفندي للاستعانة بخبرته في حل مشاكلهم. في هذا المناخ الاجتماعي المزدهر والمزدحم ، حازت هيرانوش الطفلة الموهوبة الناضجة إعجاباً كبيراً؛ هذا يعود بدون شك، جزئياً، إلى كونها بنتاً جميلة ذات بشرة فاتحة وشعر أشقر كثيف وعينين خضراوين واسعتين . بأخذ كل ما سبق ذكره في الاعتبار، نستطيع القول إنها كانت طفلة سعيدة. وهذا ما قالته بنفسها لاحقاً عندما تكلمت عن طفولتها.

ولدتُ في مدينة ارغاني- مادين (Ergani-Maden)، المكان نفسه الذي عمل فيه هايرابيد، جد هيرانوش، معلماً. اليوم معروفة باسم مادين فقط، مدينة في منطقة الازيه (Elazığ). كانت مادين مدينة مأهولة منذ القدم تقع بين منحدر جبلين مقسومة بواد. تبدو البيوت كما لو أنها مبنية بعضها فوق بعض. قديماً، كانت مادين محطة استراحة على مسار طريق الحرير؛ يمر عبرها نهر دجلة. كان هناك ثمة جسر قديم فوق دجلة يربط الجبلين وشطريّ المدينة. كلما أمطرت بغزارة، فاضت مياه النهر، بحيث كانت أحياناً تغطي الجسرالذي يضم بضعة دكاكين صغيرة هزيلة تبدو وكأنها على وشك الانهيار لولا اتكاء بعضها على بعض.

كلما فاض نهر دجلة، كانت الدكاكين تغرق في المياه وتطفو لفائف القماش على رفوفها مع أشياء أخرى، تطفو وتغرق في تيارات النهر حتى تتلاشى. كان عبور الجسر عند طوفان النهر خطراً جداً، لذا كان رجال الشرطة يتمركزون عند مدخل ومخرج الجسر لمنع الناس

من العبور. من المستحيل عبور المدينة من جهة إلى أخرى طالما المياه لم تتراجع.

قضى أبي وأمي سبع سنوات متزوجين؛ عندما توفي أبي، أصبحت أمي أرملة وهي في الرابعة والعشرين من العمر، فعادت إلى منزل والديها مع أطفالها الثلاثة، أحدهم كان ما يزال رضيعاً.

كالكثير من أبناء مادين (Maden)،عمل أبي في شركة Etibank Copper Works. كانت مساكن المدراء والفنيين تقع خارج مركز المدينة، وفي واحد من تلك المساكن كنا نعيش. أما بيت جدي وجدتي فقد كان قديماً ويقع في السوق في مركز المدينة تماماً. كان لهذا البيت ذي السقف العالي نوافذ كبيرة ذات عتبات عريضة. خصصتُ لنفسي واحدة من النوافذ التي تطل على السوق. كانت قمة وقاعدة النافذة مصنوعتين من الخشب، وكانت العتبة كبيرة بحيث كنت أستطيع اللعب بألعابي فوقها، ورسم رسومات؛ كنت أقوم بتقليد خالتي ساباهات وخالي مسعود (الذي يكبرني بثلاث سنوات فقط) وهما يكتبان دروسها. وكلما رغبتُ في الغناء وإلقاء القصائد التي حفظتها عن ظهر قلب كانت النافذة هي مسرحي. إذا وجد من يود الاستماع، كنت أقدم عروضاً موسيقية لا تُعرف لها نهاية.

لم تكن النافذة هي الوحيدة التي أحببت، بل البيت بأكمله وكل

من فيه، إلى درجة أنه كلما ذهبنا لزيارة جدتي، وأدرك أنه حان وقت العودة إلى البيت، كنت أقوم باختلاق حيل لكي لا نغادر. لم يكن أبي ينخدع قط بهذه الألاعيب لكن عندما كانت جدتي تصر 'دعها تبقى معنا' كان يقول: 'حسناً، لتبق'، وبهذه الكلمات كنت أمتلك العالم. لكن لم أكن دائماً أنجح في ذلك. مرةً، عندما كنت معاندة ولم أقبل الرضوخ على الرغم من علمي بأن الحيلة لم تعد تجدي، حملني أبي بين ذراعيه طول الطريق.

كانت خالتي صباهات وخالي مسعود يذهبان إلى المدرسة. أنْ أكون محاطة بحقائبهما ودفاترهما وأقلامهما وأقلام الألوان، وأنْ أراهما وهما يتغامزان مع أصدقائهم كما لو أنهم يتظاهرون بمشاركتي في ألعابهم،- كلها متع كانت أسباباً كافية كي أستخدم حيلاً طفولية كثيرة من أجل البقاء في ذلك البيت.

كان الغضب السريع الذي تعانيه أمي نتيجة لتحمل عبء ثلاثة أطفال صغار أعمارهم متقاربة، يقابله عطف وصبر خالتي زهرة وجدي وجدتي وهو ما كان يشدني إلى هذا البيت. وهذا هو السبب على ما أعتقد في أنني، حتى عندما كنت في سن الثانية من عمري، كنتُ ألتقط بضعة أشياء لامعنى لها وأضعها تحت ذراعي (فردة جوارب، أداة حياكة، قطعة قماش) وكلما وجدت الباب مفتوحاً، أقتنص الفرصة وأسير باتجاه بيت جدتي. لكن دائماً كان يتم التقاطي من قبل أحد معارفنا ويتم إرجاعي إلى البيت.

في إحدى المرات بقينا، أمي وأختي وأخي، ليلة في بيت جدي وجدتي. حينذاك كان أخي خالوق حديث الولادة؛ إذ إنه كان ما يزال في لباس التقميط. وأختي هاندان ما تزال تضع الحفاظات والرضاعة في فمها. في ذلك اليوم تركنا أبي في بيت جدتي وسافر إلى دياربكر.

علمتُ فيما بعد بأن أبي قد تلقى اتصالاً من دياربكر – 'البضاعة التي طلبتها قد وصلت' – لذلك وجب عليه الذهاب لتسلمها؛ آلة خياطة ماركة سينغر ذات دواسات. كان من المفترض أن يعود بها في اليوم التالي.

في تلك الليلة لعبنا بورق الشدة حتى وقت متأخر جداً. كان لعبة جدتي المفضلة هي«أحد عشر»، فهي تتقنها بشكل جيد. وقد علمتني إياها أيضاً. أو هكذا أقله ظننت. كنت أستمتع بمشاهدتهم وهم يلعبون، ومن وقت إلى آخر أصلي بصمت لكي تتم مشاركتي في اللعبة.

في صباح اليوم التالي، سمعنا طرقات سريعة وقوية على الباب. لم يكن سماع أصوات كهذه على هذا الباب أمراً اعتيادياً؛ لقد أدخلت الرعب في قلب كل ساكني المنزل وحدثت ضوضاء في أسفل الدرج الخشبي. وقفت في أعلى الدرج بحيث أستطيع رؤية ما يحدث في الأسفل. كان الرجل الواقف في الباب يلهث، يطلب من جدي أن يذهب إلى مكتب البريد: 'الخال فكري، هناك اتصال من دياربكر. يجب أن تأتي إلى مكتب البريد مباشرةً'.

بينما كان جدي ينتعل حذاءه ويلبس معطفه، هرع كل أفراد البيت

لمساعدته. 'لا تخافوا، فقط تأملوا خيراً، تحلوا بالصبر' قال ذلك ولكن هو نفسه لم يستطع العثور على فردة حذائه، ثم انتعلها في القدم الخطأ. أخيراً غادر متجهاً إلى مكتب البريد.

بعد ذهابه، ساد جو من التوتر والصمت المخيف بينما الكل جالس ينتظر. كنت أستطيع من نافذتي رؤية مكتب البريد. كان لدي إحساس بأن أشياءً تحدث ينبغي أن لا تفوتني، لذا صعدت الدرج وجلست في غرفتي. وثبتُ عيني على مكتب البريد.

بعد برهة من الزمن، رأيت رجلين يمسكان جدي من كتفيه ويقودانه إلى خارج المبنى. لم يكن يستطيع المشي، بدا منهاراً تماماً. عندما اقترب أكثر لاحظت أنه كان يبكي.

داخل المنزل، امتزجت أصوات الصراخ والدموع والضجيج. كانت أمي وخالتي تبكيان بحرقة إلى حد أنهما كادتا ترميان بنفسيهما إلى أسفل الدرج الخشبي. كانوا يبكون. مات أبي نتيجة سكتة قلبية؛ قبل أن يتمكن من إكمال رحلته. هذا ما صرح به الاتصال الهاتفي.

بعد فترة قصيرة من وفاة أبي، انتقلت أمي وأطفالها الثلاثة إلى منزل جدي –. هكذا بقينا معاً طوال الوقت. لكنني على الرغم من ذلك افتقدت أبي. في أحد الأيام تبعت خلسة أمي والبقية إلى المقبرة، وعندما اكتشفت أين تم دفن أبي، بقيت أتأمل عودته. لقد دام هذا الانتظار سنوات.

لم تعد لدي أي رغبة في الوقوف على عتبة النافذة والغناء. لقد بقي مشهد جدي وهو خارج من مكتب البريد بمساعدة رجلين، وأصوات الخطوات المرعبة على الدرج الخشبي، كلها محفورة في ذاكرتي وسكنت عقلي سنوات.

غادرنا بيت الشركة، وانتقلنا معاً مع جدي وجدتي إلى منزل أكبر قريب من المدرسة. عندما أنهى خالي محمود دراسته في كلية الطب البيطري في أنقرة، عاد للعيش معنا فترة قبل أن يلتحق بالخدمة العسكرية.

حاول خالي محمود، الأكبر بين خمسة أولاد، أن يُطمئن أمي، بقوله بأن 'مسؤوليتك أنتِ وأولادك الثلاثة تقع على عاتقي، لذلك رجاءً لا تقلقي'.

نظراً إلى كون راتب جدي بالكاد يكفي لمصاريف عائلته الخاصة المكونة من خمسة أشخاص والتي ارتفعت إلى تسعة مع مجيئنا، انتقلنا بعد فترة من الزمن للعيش في مزرعة المحمودية للخيول التي كان يعمل فيها خالي محمود. لكن بعد زواجه، قررنا بأن الوقت قد حان بالنسبة لنا «للنزول من على كتفيه» والعودة إلى بيت جدي وجدتي.

على الرغم من الضائقة المالية التي كانت تعانيها العائلة، إلا أنه هناك شيئان لم نفتقدهما قط في هذا المنزل. الأول هو الحب، والثاني هو الطعام. كانت هذه العائلة تحب الطعام اللذيذ؛ كانوا مستعدين للاقتصاد في أي شيء في سبيل المأكل الطيب.

كان جدي رجلاً مرحاً ولطيفاً وحسن النية – باستثناء الحالة التي يكون فيها جائعاً فعندها يتحول إلى شخص صعب المزاج . بمجرد أن يملأ معدته، يعود إلى شخصيته اللطيفة الودودة، كما لو أن الرجل الشرس المشاكس الذي رأيناه قبل قليل لم يكن هو نفسه. عندما كان يسيطر عليه الغضب بسبب الجوع، كانت جدتي من جهة تسرع في إعداد الطعام لإسكات جوعه و تدعوه إلى التصرف بعقلانية واتزان، ومن جهة أخرى تحاول حمايتنا من غضبه. أما نحن فقد كنا في أوقات كهذه، نزحف بعيداً إلى حين الإنتهاء من ملء معدته.

كان جدي يشتغل في معمل وفق نظام الورديات، لكن خلال شهر الصيام، رمضان، كان يعمل فقط في وردية المساء. كان كل أفراد المنزل يساندونه بحزم لاختياره وردية المساء خلال شهر رمضان، وكذلك أغلب الجيران، وكنا جميعاً نصلي لئلا يحدث شيء ما يؤدي إلى شطبه من هذه الوردية إلى أن ينتهي الشهر. إذ إنه عندما يعمل طوال الليل فإنه خلال فترة صيامه طوال النهار يكون نائماً.

أيًا كانت الوردية التي يعمل فيها، فإنه لا أحد عدا جدتي كان يتجرأ على الاقتراب منه في الأيام التي يكون فيها صائماً، قبل مغيب الشمس وجلوسنا على الإفطار.

لم يكن جدي يستيقظ من النوم إلا قبل موعد الإفطار مباشرة، هذه كانت طريقته في الهروب من معاناة الجوع ونحن كنا نستفيد من ذلك في تجنب غضبه إذ إن عينيه تصبحان خلف رأسه عندما تكون معدته فارغة. بعد أن يغسل وجهه ويأتي إلى المائدة، كانت مهمتنا نحن

الأطفال هي إخباره بأن الصلاة توشك على البدء أو أننا سمعنا صوت مدفع الإفطار. فيجلس ويملأ ملعقته بالحساء، ويرفعها إلى شفتيه وينتظر أن نقول: 'جدي، الصلاة انتهت!'، لكن إذا طال الانتظار، فإنه يغضب على المؤذن ويصرخ 'هيا ابدأ بالدعوة إلى الصلاة يا مولاي، هيا اقرأه الآن!' وإذا لم يحدث ذلك، يبدأ بإطلاق عبارات الغضب عليه. ويقوم بإنزال الملعقة والقفز من مكانه وهز قبضته ومن ثم يجلس من جديد ويملأ ملعقته بالحساء ويعود إلى الحالة السابقة نفسها: 'ربي امنحني الصبر، مولاي هلا بدأت بتلاوتك الآن؟'

في إحدى الليالي ، عاد جدي إلى البيت فوجد ضيوفاً. كنا نستطيع تحديد شدة جوعه من خلال لون وجهه و طريقة المشي. في تلك اللحظة كان جائعاً إذ إن وجهه كان مكفهراً عند دخوله إلى المنزل؛ مشى باتجاه الزائرات بخطى ثقيلة وغاضبة. قفزت كل النساء من مكانهن ووقفن على أقدامهن احتراماً. كن ينتظرن ترحيب جدي 'أهلاً ومرحباً، تفضلن بالجلوس، استرحن.'

لكنه بدلاً من ذلك ظل محدقاً إلى جدتي وهو يتنفس بصعوبة من أنفه؛ بقيت النساء واقفات. عبر جدي باتجاه جدتي وهمس في أذنها بصوتٍ كان مسموعاً من قبل الزائرات:

'أليس لدى هؤلاء النساء أطفال أو عائلات؟ ماذا يفعلن في هذا الوقت بعيداً عن بيوتهن، لما لا يذهبن إلى بيوتهن؟ اشتعلت جدتي غضباً وهي تدمدم 'ما هذا يا موسرمان.'

بينما كانت النساء مازلن واقفات ويرقبن الموقف، انفجرن ضاحكات دون إظهار أي غضب أو شعور بالإهانة.

ثم قلن 'على كل حال، لقد حان وقت المغادرة. الخال فكري جائع' وبهذا الشكل غادرن. في تلك الأيام كان الجميع ينادي جدي 'الخال فكري'؛ لاحقاً أصبح 'جد' الجميع. لم يكن أحد يتزعج مما يقوله- في حينها،أو في أي وقت آخر- ولم يكن أحد يشعر بالإهانة.



لم تكن جدتي تحب التقاط الصور. كما أن مزاج جدي في ذلك اليوم لم يكن على ما يرام. مطلع ١٩٦٥، من اليسار إلى اليمين: أخي خالوق، خالتي سباهات، أنا، أمي، أختي هاندان، جدتي وجدي.

كلما انزعجت جدتي من جدي، تقول له: 'أوي، موسرمان!'[1] مشددةً على المقطع الصوتي الأول للكلمة، لكي يبدو غضبها ونقدها اللاذع واضحاً. ويرد جدي بقوله: 'أوي، يا حورمة' مشدداً أيضاً على المقطع الأول.

كلما نسمعهما يستخدمان كلمة 'أوي' معاً، كنا ننزوي بعيداً بانتظارعبور العاصفة وانتهاء جدي من ملء معدته. لكن أمي، التي تتمتع بدقة الملاحظة وروعة التقليد، كانت تتابع هذا النقاش عن قرب، وتمتعنا فيما بعد، عندما يصبح جو البيت أكثر هدوءاً ومريحاً، بتكرار رائع لكل ما قيل، مقلدةً كل من جدي وجدتي. ونحن نكاد نسقط على الأرض من كثرة الضحك.

كان جدي، بعد أن تناول طعامه في هذه الأثناء وعاد إلى لطفه المعتاد، يستمتع بهذه التمثيليات مثلنا، وغالباً ما كان يشارك فيها. لكن جدتي كانت تهز رأسها وتقول: 'لقد تحولنا إلى عائلة مهرجين،' مرسلة نظرات غاضبة وتوبيخة باتجاه جدي الذي يحاول أن يهدئها، قائلاً: 'أوي، يا امرأة! لماذا أنت غاضبة بهذا الشكل، ألم أمنحك أجمل ثلاث بنات في العالم؟ ماذا تريدين أكثر من ذلك؟' وينظر بحب وفخر إلى البنات الثلاث اللاتي أثنى على جمالهن تواً.

كانت جدتي تحمينا دائماً. فعندما كانت تغضب أمي وتهددنا بـ بابجوها (الشبشب). كلما رأت جدتي ذلك، تقف أمامها وتمنعها

(١) مصطلح تركي دارج لـ'مسلم'.

وتهدئها، ونحن، اللواتي نعرف دائماً الطريقة المثلى للنجاة، نلتجئ إلى حضن جدتي.

في كثير من الأحيان يتجاوز الأولاد حدود تحمّل أهلهم الكبار في السن، ولابد أنه كانت هناك لحظات تجاوزنا فيها حدود صبر جدتي أيضاً. لكنها كانت دائماً صبورة ومتعاطفة معنا. لا أتذكر أي موقف كانت فيه غاضبة علينا أو تلفظت بكلمة قاسية. لكنها كانت أحياناً صارمة مع أحفادها الآخرين، وتوبخهم في بعض الأوقات. أعتقد بأننا كنا بالنسبة لها أمانات يجب حمايتها في كل الأوقات – أطفالاً مستضعفين يجب معاملتهم بأقصى درجات العناية والحنان.



١٩٥٧. من اليسار إلى اليمين: خالتي سياهات، خالتي زهرة، أمي وهيبة.

هكذا كانت تعاملنا طوال حياتها. في بعض الأحيان كانت هذه المعاملة المثلى تستفز بعض الغيرة عند بقية أفراد العائلة؛ كانوا يشيرون إلينا بشكل ساخر بـ 'الأحفاد الثمينين'.

كنتُ أسمع باستمرار بأنني أشبه أبي وأن أختي هانداان تشبه أمي، المرأة الجميلة. عندما كان الناس يقابلوننا للمرة الأولى، يقولون: 'فتحيّة تشبه أباها وهانداان تشبه أمها.' كنتُ أعلم تماماً مغزى تلك الكلمات: هانداان جميلة وأنا قبيحة. كانت جدتي تنزعج عند سماع أناس يقولون ذلك، فتأخذني عندئذ في حضنها وتمسد شعري وتعلن بصوت عالٍ وصارم، «انظروا ما أجمل عينيها، ألا يكفي ذلك!' حالما كانت تتيقن أن الجميع قد سمعها، تكمل بهدوء 'عيون وحواجب، والباقي مجرد كلمات!' بترديدها لهذا المثل القديم، تنظر إلى عينيّ بمحبة. كان هناك ثمة كبرياء في صوتها، نزاهة وموعظة للغاية، بحيث لا يبقى شيء ما يمكن أن يقال في هذه المسألة، غير بضع تعليقات مهذبة عن عيني وحاجبي.

تقاعد جدي، الذي لم يكن سعيداً في عمله، حالما أتم الفترة المطلوبة. في الأيام الأولى من تقاعده، قبل أن يتسلم راتبه التقاعدي، بقي مصراً بأنه يريد الحج إلى مكة. لكن جدتي لم تمنحه بتاتاً موافقتها على هذه الفكرة. كلما تحدث في موضوع الحج كانت تقول له 'أوي! موسرمان، الحج هو لباب بيتك' وأثناء كلامها كانت تغمزنا بعينها. في النهاية لم يتمكن جدي من الذهاب إلى مكة؛ كان راتبه التقاعدي يُصرف على الطعام، وينفد بسرعة.

كان الطعام هو بهجته الكبرى، طبقه المفضل هو اليخنة مع كمية كبيرة من اللحم والسمن وصلصة الطماطم؛ عادةً ما كان يستأجر حمّالاً من أجل إحضار اللحم من الجزار إلى البيت. لم يكن يدفع نقوداً مقابل هذه الخدمة بل قليلاً من اللحم. كان يقارن ثمن كل شيء بسعر كيلو اللحم. إذا اشترى كنزة فإنه يقوم بتقدير كمية اللحم التي بإمكانه شراؤها بالمبلغ نفسه، ويشعر بالأسى عندما يحسب مقدار اللحم الذي خسره.

'بكم اشتريتم هذا القميص؟' بعد حساب كمية اللحم التي كان بالإمكان شراؤها بثمن القميص، كان يقول: 'يا إلهي، لقد صرفتم كل

هذه النقود على ملابس.' ثم يضيف وهو يتأوه 'ألا تجدون ذلك معيباً عندما تفكرون في كمية اللحم التي كنا نستطيع شراءها بهذه النقود.' أو كان يوبخنا بقوله: 'بدل صرف كل هذه النقود على الأحذية، أليس من الأفضل لو اشترينا بها خمسة كيلوات لحم؟'

عندما كان يأتينا ضيوف من مناطق أو محافظات أخرى، كان أول سؤال، بعد تبادل التحيات الاعتيادية، هو 'كم يبلغ سعر كيلو اللحم عندكم؟' كان يغضب عندما يرد الزوار 'لا ندري'، إذ إنه لم يكن يستطيع تقبل هذا الجواب: 'كيف لشخص أن لا يعرف سعر كيلو اللحم في المكان الذي يعيش فيه!'

أينما ذهبنا، كنا نستفسر عن أسعار اللحم لأننا كنا نعلم تماماً السؤال الذي سنواجهه عند العودة.

لذلك كنا في كل مكان نذهب إليه نحاول معرفة أسعار اللحم هناك، وإذا حدث ونسينا القيام بذلك، لم نكن نجرؤ على ترك سؤاله دون جواب؛ بدلاً من ذلك كنا نعطي أي معلومة لكي نهدئه. كنا نضطر إلى الكذب!

رغم المعاملة السيئة التي كان يُعامل بها والغش الذي يتعرض له، لم يفقد جدي ثقته بالناس.كان بعض الباعة بناءً على سلوكه هذا يعتبرونه شخصاً بسيطاً، ولم يتوانوا عن بيعه مواد فاسدة – على سبيل المثال، قطعة لحم كبيرة كانت رائحتها النتنة قد بدأت تفوح. بمجرد وصول اللحمة الفاسدة إلى البيت، تبدأ مجادلة من نوع آخر تتخللها

كلمة 'أوي'، رغم أنها كانت تنتهي بقبول جدي بأنه قد تعرض للغش، لكنه لم يقبل قط أخذ اللحم وإرجاعه إلى البائع. كانت هذه المسألة (ومسائل أخرى كثيرة مشابهة) تُترك لجدتي كي تحلها: كانت تقوم بسرعة بحمل المادة الفاسدة والسير باتجاه السوق.

هناك، كانت تعثر على البائع وتوبخه على ما فعله وتعيد إليه المواد الفاسدة. عندما كان الجيران يرون جدتي مسرعة باتجاه السوق وبيدها الحقيبة أو شيء ما تحت إبطها، كانوا يسألون جدتي 'ماذا اشترى الخال فكري هذه المرة؟' كانت أمي وبقية نساء الحي يضفن هذه الحلقة الأخيرة إلى قصصهن المسرحية وتمثيليات التقليد الممتعة في المساء.

في أحد الأيام عاد جدي إلى البيت من السوق حاملاً سلة كبيرة من العنب. بعد تفحّصها ملياً، قالت جدتي: 'هذا العنب ذابل جداً، لم يعد يصلح للأكل. خذه وأعده إلى المكان الذي اشتريته منه!' كالعادة، رفض جدي القبول بأن العنب سيئ. لكي يرُي جدتي كم هي غير محقة ويثبت لها كما هو جميل هذا العنب، أمسك عنقوداً من السلة ورفعه فسقطت كل حبات العنب إلى السلة ولم يتبق شيء على حامل الحبات. كالعادة، كنا نراقب من بعيد، ونحاول كتم ضحكاتنا.

فتش جدي في السلة عن عنقود عنب متماسك وعندما وجد واحداً، دعا جدتي لرؤيته، ثم دعانا، قائلاً: 'نعمة من الله، انظروا إلى هذا العنب!' لكن العنقود التالي لم يكن بحالة السابق نفسها؛ ألتقطها

متأملاً لكنها مرة أخرى تساقطت الحبات ولم يبق غير الحامل فارغاً. سرعان ما وضعه جانباً وعاد للبحث من جديد في السلة.

بعد التحديق في أسفل السلة، أضطر جدي في النهاية إلى الاعتراف بأن العنب ليس صالحاً. محاولاته انتهت؛ واعترف كما هو الحال دائماً وغرق في صمت عميق، وتجنب لفت أنظار أفراد الحي. وترك لجدتي أمر حل هذه المسألة: أخذت السلة وتوجهت إلى السوق.

كانت جدتي سريعة البديهة والحيلة ، وماهرة في حل المشاكل - ليس مسائل السوق فقط، بل العديد من مجالات الحياة- إلى درجة أن جدي في بعض الحالات كان يلقبها بـ 'الشاويش سهر'. لوصف ديناميتها وشخصيتها، أما أمي فقد كانت تناديها 'المعلمة العاصفة'.

لم يكن هناك أي شيء تعجز عن القيام به. عندما لا تكون مشغولة بلف السجائر لـ جدي أو ترتيبها في علبة التبغ الفضية أو لا تكون منشغلة في وضع كاسات نار 'الحجامة' على ظهره عند شعوره بالبرد، أو بصب الرصاص المنصهر في الماء البارد فوق رأس شخص ما يعتقد بأن عيناً حاسدة قد أصابته ، فإنها تقوم بجمع قطع قديمة من القماش وتُخيطها معًا لتصنع منها مفارش مائدة منقوشة ومنسقة الألوان وسجاداً للصلاة، أو حياكة جوارب وقفازات بخمس إبر حياكة.

كانت جدتي مشهورة بطبخها أيضاً. مهما بلغ تعقيد الطبق وتعددت مواده، فقد كانت تطبخه بنكهة فواحة وكل من يتذوقه لا بد وأن يتحدث عنه. كانت تعمل الكبة (الكفتة) المحشوة بالجوز والزبيب

واللحم والبصل، و *kaburga dolma, maden köfte hilorik şkisi,* *şkili dolma, kibe mumbar, kibe kuduru*، و *meftune*[1] والجميع كان يتحدث باستمرار عن نكهة مأكولاتها هذه، بقولهم: 'أن يعبر أحدنا إلى الجانب الآخر دون تذوّق kibe mumbar التي تحضره تلك المرأة هو أمر غير متخيل'. ويتحدثون «بأنها ورّثت هذه الموهبة إلى بناتها» - في إشارة إلى أن مذاق طبخ خالاتي وأمي هو بمذاق طبخ جدتي نفسه تماماً.

كانت جدتي تشرح 'السر' الكامن وراء طبخها على النحو التالي: 'للحصول على نكهة كاملة، يجب عدم البخل بالمواد؛ يجب استخدام كمية وفيرة من اللحم والسمنة وصلصة الطماطم. بعبارة أخرى، لا تقتصدي. ومن ثم عند وضعها على النار، لا تهمليها، يجب أن تندمجي تماماً مع الطهو؛ على نار هادئة وكأنك جزء منها'.

كانت بناتها، حفيداتها، الجارات والصديقات، جميعهن يطلبن منها دائماً وصفات الطبخ. كنا في الغالب نراقبها وهي تقدم التفاصيل، وعند شرحها، كانت تتكلم كمدرّسة تحب عملها. من كثرة استماعنا لها وهي تكررعرض بعض الوصفات فقد حفظناها عن ظهر قلب. مازلت قادرة على إعادة سرد طريقتها في عمل الـ *meftune*، الطبق الذي أحببناه كثيراً في منطقتنا. كانت جدتي تشرح طريقة صنع هذا الطبق على هذا النحو:

---

(١) طبق لحم تقليدي.

'اشتري قطعة لحم كبيرة مدهنة من لحم ماعز صغير. لا تنزعي أي شيء منها ولا تقطعيها- ضعيها كما هي في قاع طنجرة الصلصة.' كانت تقوم أثناء الشرح بتطبيق ذلك بشكل عملي بوضع قطعة اللحم في الطنجرة. 'قطعي الباذنجان فوق اللحم. قطعي حبتين من الطماطم وحبتين من الفليفلة الخضراء الحارة. ثم اسكبي ماء السماق الذي أعددناه مسبقاً على كل هذه المكونات – ولا تبخلي بذلك. بعد أن تكوني قد تركتها تغلي مرتين فوق نار قوية، خففي النار. قبل ١٥ دقيقة من رفع الطنجرة من فوق النار، اسكبي كأساً صغيرة من الماء في الطنجرة من أجل فصل الدهون.'

لم يكن اهتمامها يتوقف فقط على طريقة الطبخ بل كانت تولي اهتماماً خاصاً بطريقة تقديم الـ *meftune* عندما تصبح جاهزة. حيث يصاحب هذه الأكلة صلصة خاصة، مصنوعة من مطحون الفلفل الأخضر والثوم، يتم سكبها على الطبق بعد أن يتم تقديمها في صحون، ومن ثم تزيينها ببقدونس مقطّع. تُقدم الـ *meftune* إلى الطاولة مع البرغل والشعيرية.

لا أتذكر أنني شعرت يوماً ما بالجوع عندما كنت طفلة. إن العيش في بيت، كالبيت الذي عشت فيه، يولي اهتماماً كبيراً جداً بالمشرب والمأكل، كان شكلاً من العقاب بالنسبة لي. بعد سنوات، وأنا أتذكر نكهة الطبق الذي كنت أرفض تناوله عندما كنت طفلة، أدرك ما فاتني؛ في مرحلة الطفولة كنت أكره أوقات الطعام.

كانت أمي تحاول إجباري على تناول الطعام ؛ أوقات الطعام كانت بمنزلة معارك تنتهي بصراخ أمي وتهديدها لي بالنعال (الشبشب أو البابوج). كنت عندئذ أركض باتجاه جدتي لمعرفتي بأنها الملجأ الأفضل. بمنتهى الرقة كانت جدتي تحضر لي الشاي والخبز والجبنة ـ الأشياء الثلاثة التي كنت أوافق على تناولها. كانت صبورة ومتعاطفة جداً معنا، لكن للأمانة كنا نحن الأطفال في المقابل نعرف حدودنا أيضاً. كانت ثمة لحظات نتوق إلى شيء ما لكننا لا نستطيع التعبيرعنه. في أوقات كهذه كانت جدتي تستشعر ما نرغب فيه، كانت تفعل كل شيء يجعلنا سعداء، تدللنا، تضعنا على ركبتها، وتمسد ظهورنا.

حالما كانت جدتي تجلس، كان خالوق وهاندان يقفزان إلى حضنها ويبدأن باللعب بثدييها الذابلين. كانت تصبرعلى ذلك حتى يشعران بالتعب من اللعب؛ لم يحدث يوماً ما أن دفعتهما بعيداً.

في الأيام التي نكون فيها في حالة كئيبة، كانت تروي لنا قصة الأخت بيزيز[1]. كانت قد حكت هذه القصة لأطفالها، والآن ترويها لنا؛ لاحقاً سترويها إلى أولاد أحفادها.

في أمسيات الشتاء الباردة ، كنا نتحايل على جدتنا أمام الموقد ونطالب بقصة الأخت بيزيز: 'رجاءً، جدتي اروي لنا قصة الأخت بيزيز. جدتي، ما هي حكاية الأخت بيزيز؟»

---

(١) بيزيز هي كلمة أرمنية لطيور ذات أجنحة غمدية.

'الأخت بيزيز هي خنفساء مجنحة، تقول جدتي. وتبدأ بسرد قصتها.

كان لدى الأخت بيزيز كمية من لباس وسخ. فأخذته لتغسله في الجدول وفي الطريق التقت قنفذاً. فسألها 'أخت بيزيز هل تتزوجينني؟'. فكان رد الأخت بيزيز 'عندما تكون غاضباً، هل ستضربني؟'. فقال القنفذ: 'بالتأكيد'، فردت 'حسناً، قل لي كيف ستضربني،' فقال لها: 'سأغرز شوكي في جسدك'. عندما سمعت هذا الرد، رفضت الأخت بيزيز عرض زواج القنفذ وتابعت طريقها إلى الجدول.

بعد هنيهة، التقت قطاً. وقد تقدم بدوره بطلب الزواج بها. فوجهت إليه الأخت بيزيز السؤال نفسه الذي سألته للقنفذ: 'عندما تغضب، بماذا ستضربني؟' فرد القط 'إذا أغضبتني فإني سوف أخدشك.' عند سماع ذلك، رفضت الأخت بيزيزطلب الزواج المقدم من قبل القط وتابعت طريقها إلى الجدول.

بعد قليل، صادفت فأراً، فوجه إليها السؤال نفسه: 'هل تقبلين بالزواج بي، سيدة بيزيز؟' فردت عليه 'عندما تغضب، بماذا ستضربني؟' أراها الفأر ذيله وقال: 'بهذا الذيل الصغير الجميل.' نظرت إلى الذيل وقالت لنفسها: 'إنه ذيل ناعم ولن يؤذيني.' قبلت عرض الفأر ومشيا معاً باتجاه الجدول لغسل الملابس.

لم يمر وقت طويل حتى سمعا صوت موسيقى قادمة من جهة منزل الباي البعيد. لمعرفته بأنه حفلة زفاف في بيت الباي، ولمعرفته

بأنه ستقام وليمة للمدعوين، قال الفأر: 'ما قولك في أن أذهب إلى بيت الباي وأحضر بعض الطعام؛ فنحن جائعون. بعد أن نقوم بملء معدتنا، نستطيع إنهاء الغسل.' هكذا غادر ضفة النهر وهرع للعثور على بعض الطعام والعودة.

عندما دخل المنزل، شدته القدور المليئة بالطعام، وصوت الموسيقى والمرح، ونسي كل شيء يخص الأخت بيزيز. أكل ورقص ومتّع نفسه فقط.

في هذه الأثناء، غسلت الأخت بيزيز الملابس ونشرتها على الحجارة، ومن ثم، وهي تميل على الجدول لتملأ كأساً من الماء، سقطت في الماء ولم تستطع إنقاذ نفسها. بعدها وصلت مجموعة خيالة، وهي في طريقها إلى منزل الباي، فتوقفت عند الجدول لإرواء عطش الخيول. أثناء شرب الماء، سمعت الخيول صوتاً قادماً من الأعماق. إنه صوت الأخت بيزيز تصيح:

'أيها الخيالة، أيها الخيالة، يا ذوي الجيوب الممتلئة بالحلوى،

عندما تصلون إلى بيت الباي، وتقابلون السيد الفأر، قولوا له بأن الأخت بيزيز قد سقطت في الجدول، وعليه العودة في الحال!'

سمع الخيالة الصوت لكنهم لم يتمكنوا من رؤية أحد، أو تحديد مصدر الصوت. بعد استراحة قصيرة تابعوا مسيرهم إلى بيت الباي. حال وصولهم إلى هناك، أخبروا الجميع بالصوت الذي سمعوه على ضفة الجدول.

سمع السيد الفأر أيضاً ما قاله الخيالة. متذكراً زوجته المنسية، غادر بيت الباي وعاد مسرعاً إلى الجدول. فوجد الأخت بيزيزعلى طرف الجدول، فقال لها:

'أعطيني يدك كي أخرجك.'

لأن الأخت بيزيز كانت غاضبة جداً على الفأر، أجابت:

'أنا مستاءة منك'

'أعطيني يدك كي أخرجك'

'أنا مستاءة منك. لقد غبت ثلاثة أيام للتسكع، وأنا ساخطة عليك، أه أه.'

'ساخطة!، أه أه ،' قالها الفأر والتقط حفنة من الطين ورمى بها الأخت بيزيز وركض هارباً.

لقد نشأ كل أولاد جدتي وأحفادها وأولاد أحفادها وهم يستمعون إلى هذه القصة، وكلهم بدورهم حكوها لأولادهم. أكثر ما أحببناه فيها، على ما أعتقد، هو تكرار كلمات النهاية التي لا معنى لها:

'أعطيني يدك كي أخرجك'

'أنا ساخطة عليك.....'

بعد وفاة والدي، لم يعد هناك مزيد من الألعاب، لم تعد لدي لهفة لأي منها. مع ذلك كنت أتوق إلى آلة موسيقية ، لكنني لم أصرح بذلك قط. بينما كان بقية الأولاد منشغلين باللعب في بيوتهم، كنت ألتقط قطعة خشب وأربط على طولها أسلاكاً وأحاول الحصول منها على أنغام مختلفة. كنت أحياناً أربط خيوط مطاطية بمختلف السماكات على طول الأسلاك، أرتبها حسب الشدة.

في أحد الأيام اشترى خالي محمود آلة مندولين لخالي مسعود الذي كان يدرس في مدرسة داخلية في دياربكر فأخذ المندولين معه عندما عاد. كنت أنتظر بفارغ الصبرعودته إلى البيت في أيام العطل. خصوصاً وأنه سيجلب المندولين معه.

كان خالي مسعود قد تعلم أغنية قديمة من الفلكلور التركي، 'القطار آتٍ، والفرح معه' وعندما عاد إلى البيت عزفها لنا. بعد مراقبته عن كثب، أخذت المندولين وبدأت عزف الأغنية التي سمعتها تواً.

لا أعلم كيف تمكنت من العزف على المندولين في اللحظة التي ألتقطها، لكن عندما لاحظ الحاضرون في بيتنا مقدرتي على ذلك،

تقرّر ترك المندولين معي. ابتداءً بهذه اللحظة، كنت أعزف عليها كلما سنحت لي الفرصة، ورغم أنني لم أستطع قراءة النوتة الموسيقية، لكنني استطعت عزف كل أغنية أسمعها.

عندما كانت هاندان تغني بصوتها العذب، كان خالوق ينظّم الإيقاع بالعزف على عقب علبة 'سمنة فيتا' المعدنية الفارغة، وأنا أرافقهما على المندولين. خلال النهار كنا نتدرب على الأغاني المحببة، وفي المساء نؤديها على شكل حفلة . كلنا - أمي، خالاتي، أختي وأخي- كنا نحب الغناء. كانت أمي وخالاتي مشهورات بصوتهن العذب. كنت أعزف وهن يغنين. الكل تقريباً كان يشارك في الغناء - لكن لم أسمع جدتي قط تغني. لم تكن تشارك بصوتها في أي أغنية لكن أحياناً إذا كان اللحن محبذاً لها، كانت تعبر ذلك بمتابعة الإيقاع بيدها.

كانت فخورة بموهبتي الموسيقية، وعند الإشادة بي، كانت تقول 'أنتِ تشبهيننا '. بالإضافة إلى ذلك كنت مجتهدة في المدرسة ، فكانت تفرح كثيراً عندما ترى نتائجي الدراسية، 'في الحقيقة ، أنت وخالكِ محمود تشبهوننا.' في ذلك الوقت لم أكن أفهم مغزى كلامها أكثر من حقيقة أنها تمدحني: ستمر سنوات قبل أن أفهم قصدها بالضبط.

كانت أمي تفرغ صندوق مقتنياتها مرتين في السنة، تتلمس كل ما بداخله، ثم تفرغه بعناية الفنان الفائقة. كنا نحب كثيراً الأيام هذه التي كانت تقوم فيها بتفريغ الصندوق وبسط المحتويات، نجلس بجانبها،

نتفحص كل قطعة تخرجها. يحتوي الصندوق على أغطية طاولة، مطرزات، ودانتيل كانت أمي قد صنعتها بنفسها كجزء من تجهيزات العروس، بالإضافة إلى العطورات وقطع المجوهرات وهدايا صغيرة كان أبي قد اشتراها لها.

أكثر ما كان يشد انتباهنا،من ضمن كل هذه المقتنيات،هو فستان النوم الأرجواني اللماع، الذي لم نرَ مثيلاً له إلا في الأفلام الأجنبية، وكذلك مجموعة الأمشاط وفرشاة الشعر والمرآة . كلما رأينا هذه الأشياء، كنا نتوسل إلى أمي أن ترتديها وتزين شعرها أمام تلك المرآة الجميلة.

في الحقيقة، هي أيضاً كانت تتوق إلى القيام بذلك، بحيث تلبس الفستان الأرجواني، وتسرح شعرها وهي تنظر إلى المرآة، وترتب شعرها إلى الخلف من وقت إلى آخر مثل نجوم السينما. كنا نستمتع برؤية هذا المشهد. قيل بأن خالي محمود قد أحضر الفستان الأرجواني والمرآة ومجموعة التزيين معه عند عودته من أميركا. في ذلك الوقت كان الخال محمود يدرس في إنكلترا. إن فكرة أنه كان في أميركا بدت لنا أمراً طبيعياً، لذا لم نسأل عن التفاصيل.

عندما عاد جدي من الصلاة في أحد الأيام عصراً، كنت أمسك المندولين بيدي، أتدرب تحضيراً للعرض الموسيقي الروتيني في البيت. كالعادة سعل لكي يعلمنا بأنه وصل.

كانت الغاية من وراء إصدار الصوت لحظة دخوله البيت هو منح النساء والأولاد فرصة لإخفاء أي شيء يقومون به ولا يريدون أن يراه جدي. على سبيل المثال، كانت أمي تدخن أمام الجميع عدا جدي. وهو يعلم بذلك لكنه كان يتصرف كما لو أنه لا يعلم، ولكي يجنبها الخجل، يفتعل ضجة كهذه أثناء الدخول؛ وبذلك يعطيها وقتاً كافياً لإطفاء سيجارتها وإخفاء الدليل.

بعد أن جلس وأهل البيت حوله، قال: 'اليوم، تحدث خطيب المسجد عن المندولين،' وانتظر حتى يتحقق بأن الجميع يستمعون. 'لقد قال بأن العزف على المندولين حرام. وأضاف بأننا نرتكب إثماً إذا اشترينا لأولادنا مندوليناً ؛ وبأنه يجب أن نرسل أولادنا إلى دروس القرآن بدل أن نشتري لهم المندولين.'

بمجرد سماعها هذا الكلام تدخلت جدتي دون تردد، وسألته: 'هل الإمام هو من قال هذا الكلام؟' لكي تتحقق.

'نعم، هو من قال ذلك،' ردّ جدي، وعند سماعها هذا الجواب، صرخت جدتي بغضب: 'ألا يخجل هذا الإمام! ما الذي يجعل العزف على المندولين إثماً؟ لو كان هو نفسه أو أولاده يتمتعون بموهبة عزف المندولين لما تفوه بكلام كهذا.'

ثم قالت لجدي: 'لا تحضر مرة أخرى سخافات هذا الإمام الجاهل إلى هذا البيت.' بأخذها الأمرعلى عاتقها وإسكات جدي، هزت رأسها لكي أكمل. شعرت بالامتنان لجدتي. ربما لم يكن جدي مقتنعاً تماماً بما سمعه في المسجد، إذ إنه بعد هذه الحادثة، لم يطلب منا قط إيقاف الحفلات التي كنا نحييها بالمندولين وعلبة سمنة فيتا (Vita Oil) المعدنية الفارغة التي كنا نستخدمها كآلة إيقاع.

كان كل من جدي وجدتي مسلمين ورعين.لكن جدتي لم تكن تقبل التعصب أو أي شيء ينافي المنطق، ولم تكن تخاف من الوقوف في وجه أي شخص لا يتكلم بحق. حتى لو كان هذا الشخص هو الإمام بذاته، كما كانت تنبه المقربين والمعارف، وتتمكن في النهاية من إقناع جدي الذي كان مهيأً للبقاء تحت تأثيرها.

في الصباح ذهبنا إلى المقبرة. كان قد تم نقل جدتي من مشرحة المشفى إلى مغسل المقبرة، حيث سيتم غسلها حسب الطقوس قبل لفها بالكفن. لذا توجهنا كلنا - أولادها، أحفادها، وأولاد أحفادها، وأنسباؤها - إلى المقبرة. عند غسلها كان مسموحٌ للنساء فقط بالدخول؛أما الرجال فقد كان يُسمح لهم بإلقاء نظرة الوداع على جدتي فقط بعد أن يتم غسلها ولفها بالكفن.

كانت النساء الأربع في الداخل، يبذلن ما بوسعهن لشد الانتباه إلى عملهن المتقن وبأنهن يستحقّن إكرامية (بقشيش) كبيرة، كنّ يصلين بصوت عالٍ وهن يغسلن جدتي بقطعة قماش طرية مشبعة بالصابون، وبعدها يسكبون الماء الحار عليها؛ كلما كررن هذا الطقس كن ينظرن إلينا.

كانت جدتي تحب النظافة. أنا واثقة بأنها، لو كانت تستطيع رفع رأسها في تلك اللحظة، كانت ستتوجه إلى أولئك النساء المنشغلات بغسلها بهذه الليف الصابونية وتقول، 'لا تغسلوني فقط بهذه الليف- بل افركوا جلدي بشكل قوي حتى يزول الوسخ كله.'

لم تكن جدتي تتقبل الناس غير المهتمين بالنظافة أو الفوضويين: إذا حاول أحدهم ربط عدم النظافة بالفقر، فإنها ترفض ذلك بتاتاً، إذ تقول: 'النظافة لا تحتاج إلى أكثر من قالب صابون، يا فتاتي. عدم النظافة لا علاقة له بالفقر.'

بعد أن قامت النساء بغسلها عدة مرات، ملأن طاسة الحمام بالماء وأعطتهن أولاً إلى الخالة زهرة، وقلن 'هيا، أنتن أيضاً اسكبن قليلاً من الماء، فالقيام بذلك يدخل الراحة إلى النفس ويزيد الصبر' في البداية قامت الخالة زهرة ثم الخالة سباهات بحضن أمهما وبكتا، ثم سكبتا بعض الماء عليها. ثم قامت هاندان، التي كانت قد وصلت من أنقرة، بسكب الماء على جدتها ثم حضنتها، وهي تردد 'الأخت النظيفة، الأخت النظيفة' على شكل ترنيمة جنائزية وبكت بكاءً شديداً.

كانت جدتي مشهورة بنظافتها. والشيء الأول الذي يلفت انتباه من يدخل بيتها القديم النائي الخالي من أثاث حديثة، هو رائحة الصابون العطرة. كانت شبابيك وأسقف وأرضيات بعض البيوت التي سكنّاها خشبية. فكانت أمي وجدتي وخالاتي يقمن بتنظيف تلك الألواح الخشبية بحكها بشكل متكرربالفرشاة والماء المشبع بالصابون إلى أن تشع بياضاً. كلما وجهن الملامة إلى أحد لأن أرضيات بيته والنوافذ لا تشع بياضاً، كن بذلك يمدحن أنفسهن ضمنياً على نظافتهن.

بعد الانتهاء من غسل الملابس العادية، تبدأ عملية غلي الملابس

الداخلية والحجابات والشراشف المصنوعة من القماش الأبيض ساعات متتالية، فيتعطر البيت برائحة الغلي النظيف التي مازلت أستذكرها.

بينما كانت جدتي وبناتها ينشرن الغسيل الأبيض وهن فخورات، كن يستمعن (دون لفت أنظار الآخرين) إلى ما يقوله الجيران والمارة عنهن؛ لكن لم يخفين قط سعادتهن بسماع ما يقوله الناس لأن غسيلنا كان مشهوراً في كل منطقة مادين لبياضه الناصع ورائحته العطرة التي تنتشر بعد أن تكون قد نشفت. كان الناس الذين يمرون بجانب منزلنا ينظرون إلى الغسيل الناصع البياض وهو يرفرف في الهواء، أما الأشخاص الذين ألفوا هذا المنظر فقد كانوا دائماً يطلقون بعض كلمات المدح قبل أن يكملوا طريقهم.

كانت أيام الغسل تبدأ بالـ تهفير (Tahfir). والذي يعني غسل قطع معينة من الملابس بالصابون تحت ماء جارية قبل وضعها في الحوض. كانت الملابس التي تخضع لهذا النوع من المعالجة هي بنطال البيجاما، السراويل، الملابس الداخلية والجوارب. كان توضيح جدتي لهذا الفعل بسيطاً: 'هذه الملابس معرضة للتلوث بالبول في المرحاض. لا يمكن أن نضعها في الحوض قبل أن يتم غسلها.'

كانت المراحيض في مادين مصنوعة من الحجر: كانت عبارة عن فتحة في الأرض، وعتبتين توضع عليهما القدمان. 'مهما كان الشخص حريصاً في المرحاض، لابد من تلوث لباسه ببعض البول،' هكذا تقول

جدتي. وبالتالي فإن يوم الغسل كان يبدأ دائماً بأخذ كل قطع الملابس التي تلوثت بالبول و'إمرارها خلال الماء' - أو بعبارة أخرى، غسلها أولاً بمياه جارية.

المهمة التالية كانت إخراج الخيوط المطاطية من خصور البيجامات ونهايات أكمام الملابس، لكي يتم غسلها بشكل مستقل عن الملابس. بعد غلي اللباس الأبيض وتنشيفه، يتم كي كامل الملابس المغسولة؛ وبعد 'الكي الساخن' تُعاد الأربطة المطاطية إلى مواضعها الأساسية بواسطة ربط بداية المطاط بمشبك أو إبرة، ومن ثم يتم طي اللباس بعناية ويعاد كل شيء إلى مكانه المناسب. هذه كانت طقوس أيام الغسل.

كانت كثرة أيام الغسل بهذا الشكل تزعج جدي. فكان يقول: 'أنتم تغسلون بهذه الكثرة لأنكم تستبدلون ملابسكم كثيراً؛ لايجوز التعامل مع الملابس بهذه الطريقة،' لكن لا أحد من النساء في البيت كانت تأخذ كلامه على محمل الجد.

ظل طقس الـ تهفير مستمراً حتى بعد أن اشترينا غسالة آلية لاستخدامها لكل أنواع الملابس. بعض القطع لم تكن توضع في الآلة إلا بعد غسلها مقدماً- وإذا تبيّن أن الجوارب التي تم غسلها بالماء ثم بالآلة لم تصبح نظيفة فإنه يتم إعادة غسلها من جديد يدوياً.

كانت جدتي تستمتع بالاستضافة والذهاب إلى المطاعم؛ لكنها كانت مهتمة جداً بالنظافة بحيث ترفض تناول الضيافات المقدمة في

مكان تجده وسخاً، بقولها 'شكراً، لكنني صائمة' عند سماع هذا، كان المضيف لا يتردد في تصديق كلام هذه المرأة المعروفة بصدقها وصراحتها والكارهة للنفاق ؛ فيقول: 'تقبّل الله،' وينسحب.

في إحدى المرات عندما كنا وحدنا، وجهتُ إليها سؤالاً مزعجاً: 'أنت تعلميننا بأن لا نكذب، لكنك أنت نفسك تقومين بذلك. أليس الكذب إثماً، جدتي؟'. فردّت والاضطراب بادٍ على وجهها: 'معك حق يا ابنتي، الله المسامح، لكن ما عساي فعله؟ ذلك المكان كان قذراً جداً.'

كنت أكره أيام الحمّام، عدا طريق العودة إلى المنزل. كانت جدتي، لاعتقادها بأن الاغتسال في البيت ليس كافياً لكي نصبح نظيفين ولرفضها الاستماع إلى شكاوانا واعتراضاتنا، تسوقنا جميعاً إلى الحمّام. كانت قفازات الحمّام والليف والماء الحار والبخار تؤذي بشرتنا الغضة الطفولية؛ كانت كل محاولاتنا لتجنب هذا العذاب، المسمى حماماً، دون جدوى. لكن ما يزال طريق العودة من الحمام إلى البيت من أمتع الذكريات. حال دخولنا البيت، النظيف والمعطر برائحة الصابون، يقوم الكبار بإشعال المدفأة التي تم تجهيزها قبل مغادرتنا إلى الحمام، وبعدها يبدأ إبريق الشاي الموضوع فوق المدفأة بالغليان والقرقعة. كنا نسترخي على الوسائد خلف المدفأة ونتمطى مثل القططة.

بعد بضع سنوات من وفاة والدي، لاحظت وجود أحاديث سرية، مترافقة بغمزات وإيماءات، تتم بالهمسات بحيث لا يتمكن الأولاد من الاستماع. يعتقد البالغون بأنهم يستطيعون إخفاء أحاديثهم عن الأولاد، لكن الحقيقة هي أن الأولاد يسمعون كل شيء ويلتقطون أي شيء يحدث. من المقاطع الصغيرة والقليلة التي سمعتها، اتضح لي بأن عدداً من الرجال قد وقع في حب أمي ويرغبون في الزواج بها.

في بعض الأحيان كانت النساء الخطّابات يأتين إلى بيتنا ويجتمعن مع جدتي في غرفة مغلقة؛ ثم يغادرن وعلى وجوههن علامات غموض؛ كلما أتى هؤلاء الناس لزيارتنا، لم يكن مسموحاً لنا بالدخول إلى الغرفة، لكن بعد مغادرتهم أتظاهر بأنني منشغلة باللعب ولا ألفت انتباههم، في حين أنني أكون قد تنصّتُ إلى كل ما قالوه.

في إحدىَ المرات، عندما اعتقدوا بأننا نائمات بدأوا بالتكلّم بصوت مسموع، سمعت حديثهم بشكل واضح جداً. فقالت جدتي لأمي: 'أنتِ شابة يا ابنتي، أنت جميلة، تزوّجي. إذا كنت تحبين أحداً وترينه مناسباً لك، لا تخجلي، ارتبطي به.'

لكن أمي اعترضت: 'لن أدع أطفالي يكبرون في كنف زوج أم.'

فردت جدتي على ذلك، 'لا تقلقي بشأن الأولاد، أنا سأعتني بهم. لا تضيعي شبابك.' لاحقاً، سمعتها تكرر القول: 'إذا كنت تريدين ذلك يا ابنتي، لا تقلقي. تزوجي وأنا سأعتني بالأولاد.'

لم أسمع قط فيما إذا كانت أمي رغبت في الزواج أو لا، لكنها لم

تتزوج قط. عندما استمعت إلى تلك المحادثة، أصبتُ بالهلع لمجرد التفكير أن أمي قد تتركنا؛ لم أخبر أحداً بما سمعت، لكن أمضيت عدة ليالٍ بدون نوم قلقة مما قد يحدث.

لكن عندما أفكر في تلك الأيام، أفهم إصرار جدتي بطريقة مختلفة. فعلى الرغم من أنها عاشت في بلدة نائية محافظة ذات طبيعة قمعية، فإنها مع ذلك كانت تشجع ابنتها، 'المرأة الأرملة'، على عدم إهمال حياتها الجنسية.

كان هناك في مادين ٣ دور سينما. أبعدها عن بيتنا كانت مملوكة من قبل المصنع ومعروفة في البلدة بـ 'سينما التشغيل': كانت تعرض أفلاماً أجنبية مع ترجمة نصية على الشاشة، فقط في المساء. لهذا السبب لم نكن نستطيع الذهاب إليها إلا برفقة شخص بالغ. على الرغم من رغبة أمي في القيام بذلك لكن كأرملة شابة وجميلة لم تكن تجرؤ على الذهاب إلى السينما في المساء خوفاً من القال والقيل. كما أن طلب ذلك من جدي كان دون جدوى. هكذا لم يكن هناك سوى جدتي نتوسل إليها كي تأخذنا إلى هناك. شخصياً لم يكن لها أي رغبة في الذهاب إذ إنها أمية لا تجيد القراءة والكتابة، وبالتالي لا تستطيع متابعة الترجمة - لذلك كانت توصلنا إلى هناك وتعود لأخذنا عند انتهاء العرض.

أما سينما أوزان فقد كانت قبالة بيتنا. كانت تملك مسرحاً مغلقاً

مخصصاً للشتاء وآخر مفتوحاً في الهواء الطلق مخصصاً للصيف. لقد شاهدنا كل الأفلام التي عرضتها السينما الصيفية، وشاهدنا كل المناظر حتى النهاية بحيث نستطيع تذكر كل المشاهد والكتابات. كان صوت الموسيقى التصويرية مرتفعاً بحيث كنا نسمعه ونحن داخل المنزل.

بالإضافة إلى هذين الدارين، كانت هناك دار ثالثة اسمها سينما سيزار الواقعة على الضفة الأخرى من نهر دجلة، من جهة الجبل المقابل لمنزلنا. للوصول إلى هناك، كان يستلزم عبور الجسر القديم باتجاه السوق.

كانت ثمة منافسة شديدة بين هاتين الدارين. كانتا تعرضان فيلمين وأحياناً ثلاثة بشكل متتالٍ، وتتنافسان من خلال الإعلانات؛ بإرسال رجال يحملون المكبرات الصوتية واليافطات إلى الشوارع للقيام بالدعاية للأفلام. كانت النساء تفضلن أفلام محرم نور وأيشيجيك[1] الحزينة. يتم تقييم جودة الفيلم بمقدار الدموع التي يذرفها مشاهدوه.

ذات يوم، كان أحد الرجال الذين يحملون مكبر الصوت ويصيح: 'هذا الفيلم سيجعلكم تبكون وتبكون، بحيث أن منديلاً واحداً فقط لن يكفي لذا أحضروا عشرة!'

عند سماع النساء هذا الكلام تركن أعمالهن المنزلية وهرعن مسرعات لمشاهدة الفيلم.

بمجرد اكتشاف فاعلية حيلة المنديل، والتفكير في مدى نجاح

---

(١) ممثلون أتراك مشهورون في خمسينيات وستينيات القرن الماضي.

هذه الطريقة في ترويج الأفلام، نزل في اليوم التالي شخص يعمل لمصلحة دار السينما الأخرى إلى الشوارع وهو يحمل المكبر الصوتي وبدأ ينادي:

'هذا الفيلم سيجعلك تبكي كثيراً جداً، بحيث المناديل لن تكفي! أحضر معك رزمة! لا بل خمسة!'

لقد كان مسموحاً لنا بالذهاب إلى العروض النهارية في صالتيّ أوزان وسيزار حتى بدون صحبة شخص بالغ. كانت متعتنا الكبرى هي ملء جيوبنا ببذور البطيخ والجبس التي حصلنا عليها من جدتنا والتوجه إلى عرض يوم السبت الصباحي. هذه البذور هي بذور البطيخ الذي كنا نأكلها خلال الصيف؛ حيث كان يتم غسلها وتنشيفها بدلاً من رميها في المزبلة. ومن ثم تقوم جدتي بغليها في ماء مالح، وصبها في مقلاة حديدية وتحميصها على النار. كما تقوم أيضاً بغسل بذور الجبس في ماء مالح. كلما ذهبنا إلى السينما، كان يتم ملء جيوبنا بتلك البذور. لقد كان أولاد المدارس هم من يذهبون إلى العروض النهارية. كنا، نحن الأطفال، نمضغ هذه البذور وننفثها معاً أثناء الضحك على المقاطع الكوميدية، نبكي بشكل جماعي خلال المشاهد الحزينة، نصرخ خلال اللقطات القوية لتمجيد الزعيم – وعندما تكون النهاية مرضية، كنا نصفق معاً.

في اليوم الأول للعطلة بعد تسلمنا للنتائج المدرسية،عبرنا نحن الأخوة الثلاثة الجسر باتجاه سينما سيزار الواقعة في السوق. نظراً إلى كونها تعرض فيلمين متتاليين فقد بقينا وقتاً أطول في الداخل.

بمجرد انتهاء الفيلم، وقبل إشعال الأضواء سمعنا نداءً: 'ألو، ألو. انتباه، انتباه!' (في مادين كل النداءات تبدأ بهذا الشكل.) 'ألو، ألو. انتباه، انتباه! على الجميع البقاء في مقاعدهم هادئين والانتظار!' على أثر هذا النداء جلس من جديد كل الذين كانوا قد وقفوا تواً، وانتظرنا جميعاً.

بعد لحظات، علمنا بالذي يجري عن طريق الأمهات والآباء الذين أتوا لاصطحاب أطفالهم. يبدو أن البلدة بأكملها تعرضت للفيضان نتيجة الأمطار الغزيرة، فطاف النهر على الأرصفة وغطت المياه الجسور.

كما تم إغلاق الجسر القديم أمام المرور – حتى للمشاة- لغاية اليوم التالي. فاضت الدكاكين الموجودة على الجسر، وأصبح هو نفسه في حالة خطرة.

تمكنت العائلات التي تعيش في هذا الجانب من الجسر من أخذ أطفالها؛ بينما العائلات التي تعيش في الجانب الآخر من الجسر لم تتمكن من القيام بذلك.

تملكني القلق والخوف، فقد كنت مسؤولة عن أخي وأختي الصغيرين، وأردت الوصول إلى حل قبل أن يكتشفا بأنني خائفة، في النهاية قررت البحث عن العم فائق، صاحب السينما.

كان العم فائق صديقاً مقرباً لأبي وخالي، سوف لن يتركنا عالقين على هذه الحالة؛ بالتأكيد سيفعل شيئاً حيال ذلك. نهضنا نحن الثلاثة

واتجهنا إلى باب السينما، لكن تم منعنا. قلت بأننا نريد مقابلة العم فائق. فرد البواب 'انتظروا في الداخل، سوف أخبر العم فائق بذلك.'

جلسنا ننتظر لكن البواب لم يتزحزح من مكانه، ولم يمر رسالتنا إلى العم فائق. بعد لحظات، عندما نهضنا من جديد وذهبنا إلى الباب، هرعت امرأة من خلال الباب. إنها جدتي؛ ركضنا إلى حضنها. دون إحداث أي ضجة أخذتنا بأسرع ما يمكن إلى الخارج.

بعد مرورنا خلال السوق، اتجهنا إلى الجسرحيث يتجمع عدد كبيرمن الناس على ضفتي النهر. لم يكن رجال الشرطة يسمحون بعبور أي شخص، لكن الناس كانوا يناشدونهم ويجادلونهم.

وقف المعلم فازلي وياشار الأحمر، اللذان يملكان دكاكين على الجسر، خلف رجال الشرطة تماماً، وقد تسمرت أعينهما وهما ينظران بيأس إلى المياه الهائجة ، ورأساهما بين أيديهما. لقد طافت دكاكينهما ورفوف الأقمشة تتمايل وتغرق في التيارات الهائجة. كل الدكاكين على الجسر واجهت المصير نفسه. مع ذلك كان مصير دكاكين المعلم فازلي هو الأسوأ.

عندما وصلنا إلى الجسر كان الظلام قد خيّم. بثقة عالية بالنفس، توجّهت جدتي إلى أحد رجال الشرطة الذين يمنعون عبور الجسر. قالت: 'نحن هنا.' قال رجل الشرطة (المفوض، كما قيل لي لاحقاً) شيئاً ما لزملائه، فاقترب ٣ منهم- كانت سراويلهم مطوية إلى ما فوق الركبة. رفعنا المفوض واحدة تلو الأخرى ووضعنا على ظهر رجال

الشرطة الثلاثة. عبرنا الجسر المغمور بالمياه محمولين على الظهور؛ مشت جدتي بجانبنا حافية القدمين، حذاؤها في يدها.

عندما وصلنا بالقرب من البيت، وجدنا أمي تنتظرنا في الشارع، حضنتنا بفرح. مرة أخرى نجحت جدتي، لكن - كما هو الحال دائماً- لم تفاخر بذلك، ولم تذكر ذلك اليوم مرة أخرى.

في تلك الليلة دارت أحاديث كثيرة في بيتنا، حول الطريقة التي تمكنت فيها جدتي، والجسر مغلق للمرور، ليس العبور فقط بل وإقناع رجال الشرطة الثلاثة بحملنا. حتى عندما أشاد جدي بـها بعبارة 'الجاويش سهر'، لم تُظهر أي رغبة في التوقف عنده، وفجأة حاولت تغيير الموضوع. زحفنا إلى حضن جدتنا، لكي تمسّد ظهورنا وتدللنا أكثر.

أمضتْ جدتي أيامها الأخيرة في بيت خالتي زهرة في مدينة غيبزه (Gebze)[1]. كان إمري، الابن الأصغر لـ خالتي زهرة، هو من أخبر الأولاد والأحفاد بوفاة جدته، وحال سماعنا بالخبر، انطلق أفراد العائلة الذين يعيشون خارج غيبزة وإسطنبول (Istanbul)- في أنقرة، إلازه (Elaziğ) وإديريميت (Edermit)- مباشرةً للحاق بمراسم الدفن. تجمعنا كلنا في بيت خالتي زهرة.

أبدى جيران خالتي زهرة اهتماماً كبيراً باستقبال كل القادمين، متنافسين فيما بينهم في استضافة كل قادم جديد، فتحوا لنا بيوتهم وقدموا لنا مكاناً للمبيت.

لقد تأثرنا واندهشنا من كرم جيران خالتي زهرة. وكلما حاولنا شكرهم، سمعنا الجواب نفسه:

'لا داعي للشكر، الخالة سهر كانت جدتنا جميعاً. كانت إنسانة كريمة ومحبة ومساعدة دائماً. واجبنا أن نساعدها في رحلتها الأخيرة،

---

(١) بلدة صناعية على الشاطئ الشمالي من بحر مرمرة.

من فضلكم لا تحرمونا من القيام بذلك.' كل واحدة منهن لديها قصة ترويها عن شيمة مساعدة الآخرين التي كانت تتمتع بها جدتي.

كانت شيمة الاستعداد للمساعدة نابعة من طبيعتها، ومتمحورة في شخصيتها. كانت تقوم بمساعدة هؤلاء المحتاجين ليس بدافع الإحساس بالواجب، أو من أجل نيل ثواب: كانت تؤديها بشكل غريزي، لأنها كانت جزءاً من طبيعتها. ففي اللحظة التي تسمع أن أحداً بحاجة لمساعدة، تهرع إلى جانبه للقيام بأي شيء يلبي الحاجة. لم تكن تتحدث عن حسناتها، وإذا حاول شخص ما القيام بذلك، عندها كانت تقول: 'افعل خيراً وارمه في البحر. إذا لم يدر بذلك الخالق، فإن السمك يدري.'

كان لرأيها قيمة كبيرة، وعند نشوب خلافات بين الجيران، كانوا يطلبون منها التحكيم. إذا حدث ثمة خلاف بين رجل وزوجته، كانت جدتي على الأغلب تتدخل. كانت تستدعى باستمرار إلى بيوت الناس لحل المشاحنات واستعادة السكينة. كان جدي يرافقها أحياناً، لكن في العموم كان يفضل النوم أو الاسترخاء ويرفض الذهاب. حتى لو تطلب منها الأمر السهر طوال الليل، كانت جدتي تستجيب دائماً لأي شخص يحتاج إلى مساعدتها، أي شخص تعتقد بأنها تستطيع المساعدة على حل مشكلته.

عندما بدأت تشكو من مشاكل في عينيها، أخذها خالي محمود إلى أنقرة. ورتب لها الأمر بحيث خضعت لعملية في مشفى العيون.

خرجت من هناك بزوج نظّارات – واحدة للبعيد والأخرى للقريب. نصحها خالي ونبهها بوجوب استخدام النظّارة دائماً، وطلب منا مراقبتها عن كثب للتحقق من أنها تقوم بذلك.

منذ ذلك اليوم،أُضيفت إلى مهام البيت مهمة جديدة وهي التحقق كل صباح من وضع جدتنا للنظّارة، وفي حال عدم قيامها بذلك، وجب البحث عنها وتذكيرها بضرورة وضعها. في صباح أحد الأيام كنا منهمكين بالبحث عن النظّارات، ولم يستطع أحد العثور عليها. لم ندع ركناً في البيت إلا بحثنا فيه، على الرغم من تهرب جدتي من الأسئلة الأولية إلا أنها سرعان ما اضطرت أن توضح. كانت هناك أرملة تعيش في الجوار، في الليلة الماضية جاءت لزيارة جدتي، وبعد أن قالت بأنها أيضاً تعاني مشاكل في نظرها، جرّبت نظّارات جدتي وقالت، 'هذه النظّارات تناسبني تماماً يا أختي سهر.' بمجرد سماع جدتي لهذه الكلمات أهدت إليها النظّارات مع العلبة .

كان تفسيرها واضحاً وموجزاً: 'أنا أستطيع شراء زوج نظّارات جديد أم هي فلا. مبارك عليها وليكن وضعها مصدر سعادة لها.' هذا كل ما أرادت قوله؛وهنا تم إغلاق الموضوع. بعدها بقيت جدتي فترة طويلة دون نظّارات لأن خالي، الذي يحتفظ بالوصفة، كان خارج البلاد. للحصول على زوج نظّارات جديد كان علينا الانتظار إلى حين عودة خالي، لشرائها وإرسالها من أنقرة.

لهذا السبب يصف جدي، جدتي بأنها كالشخص الذي 'يقدم

مهوداً لحديثي الولادة وتوابيت للموتى،' على الرغم من أن أعمالها الحسنة تجاه الآخرين تجعله فخوراً بها، إلا أن ذلك لا يمنعه من الشكوى من هذا الموضوع.

* * *

كانت الصلاة في المسجد قد انتهت تواً، والجموع انضمت للصلاة خلال مراسم دفن جدتي. بصوت عالٍ قال الإمام، 'الله يغفر لها خطاياها!'، 'فهل تسامحونها؟' مكرراً كل عبارة ثلاث مرات. كرر المجتمعون في الساحة 'سامحناها!' مرة أخرى لم أستطع منع نفسي: 'نحن من يجب أن نطلب منها المغفرة،' بكيت، 'لتسامحنا-لتسامحكم، لتسامحنا، لتسامحنا جميعاً.' لم أستطع التحكم في صوتي الذي بدأ يرتفع شيئاً فشيئاً. الكل نظر إلي نظرة حيرة؛ معظمهم لم يفهم ماذا أقول.

كانت هيرانوش في تلك السنة قد أنهت الصف الثالث في المدرسة بنجاح. لكونها طفلة سريعة التعلم ومتحملة للمسؤولية، لم تكن تساعد أمها فقط في أعمال المنزل بل كانت تعتني ببقية الأطفال، تلعب معهم وتحاول تعليمهم كل ما تتعلمه في المدرسة. مهما بلغت صعوبة المهمة التي تتولاها، فقد كانت تنفذها إلى النهاية.

في يوم ربيعي دافئ، دهم رجال الدرك القرية حيث قاموا بجمع عدد من القرويين في الساحة، وهناك أمام أعينهم، ذبحوا مختار

القرية، نيغوروس آغا، الذي كان يتقن التركية، ويلعب دور الوسيط بين القرويين وجباة الضرائب وبقية السلطات المحلية. لاحقاً جمعوا كل شباب القرية البالغين وأخذوهم بعيداً، حيث ساقهم الدرك مكبلين مثنى مثنى. من ضمنهم كان جدّي هيرانوش واثنان من أعمامها وخالها. قيل بأنه تم سوق هؤلاء الرجال إلى بالو. لم يكن ممكناً معرفة ما الذي حدث تماماً إذ إنه لم يعد أحد منهم قط من الأماكن التي أُخذوا إليها.

هكذا لم يبق في القرية سوى النساء والأطفال؛ بعد مشاهدتهن كيف تم ضرب الرجال- شباباً وشياباً- بأعقاب البنادق، وإهانتهم، وجمعهم وسوقهم بعيداً، استولى عليهن الهلع، ولم يستطعن استجماع قواهن والعودة إلى بيوتهن، ولم يستطعن العمل – لقد تجمعن معاً في الساحة لمشاركة أحزانهن، ولطلب نصيحة كبار السن، والتشاور. لا أحد يعلم إلى أين أو لماذا أُخذ الرجال بعيداً، لكن كانت هناك إشاعات عديدة.

بقيت جدة هيرنواش من أبيها تقول للآخرين، 'لا تقلقن، كل شيء سيكون على ما يرام، كلهم سيعودون'، وتابعت: 'أنتن كن أطفالاً حينذاك، أغلبكم لا يتذكر ماذا جرى في الماضي. فقريتنا تعرضت قبل عشرين عاماً لمداهمة كهذه، القرية بأكملها كانت خالية. حينذاك قاموا بسوقنا جميعاً.'

سيدة أخرى قاطعتها، 'لقد مات كثيرون على الطرقات، وفي الجبال. لقد دفنّا موتنا هناك.'

أكملت جدة هيرانوش قصتها:

'فقدنا بعضهم، لكن معظمنا تمكّن من العيش في تلك الجبال فترة طويلة. وفي أحد الأيام تلقينا الإذن بالرجوع إلى قريتنا، وهذا ما فعلناه. عندما عدنا وجدنا كنائسنا ومدارسنا وبيوتنا محروقة ومهدمة. احتجنا إلى عدة سنوات لإعادة بنائها، لكن كما ترون أعدنا بناءها بشكل أمتن وأجمل من قبل.' فأومأت عدة نساء رؤوسهن كإشارة تأكيد.

لكن معظم الفتيات لم يكن متفائلات مثل جدة هيرانوش. بقين مصرات على أن هذا الهجوم لا يشبه ذلك الذي وقع قبل عشرين عاماً، وأن الرجال الذين تم أخذهم لن يعودوا أبداً. حينذاك تلت هيرانوش بصمت كل الصلوات التي عرفتها من أجل أن يتحقق كل ما قالته جدتها، وأن يعود جدها وخالها وأعمامها، وحاولت أن تخمن إلى أي الجبال تم أخذهم. وأنصتت كبقية أطفال القرية، بكل اهتمام إلى الأحاديث الجارية حولها لأنها كانت تريد معرفة ما الذي حدث، وماذا ينتظرهم.

كانت إسكوهي، أم هيرانوش، في التاسعة من العمر عند وقوع الهجوم الذي أشارت إليه حماتها. ولأن تجربتها أيام الطفولة مكنتها أكثر من غيرها من التنبؤ بالمخاطر المقبلة؛ فقد جمعت أخواتها وطلبت منهن قص شعرهن وعمل أي شيء من شأنه جعلهن يبدين قبيحات قدر المستطاع، والعثورعلى ملابس بالية بحيث يبقين بعيدات عن لفت الأنظار.

كلهن أطعن الكلام ماعدا أصغرهن، سيرانوش. بعد تجميع شعرهن في خمس جدائل وقصها، نفذن تعليماتها الأخرى. لم ترفض سيرانوش قص شعرها فقط، بل أيضاً رفضت جعل وجهها يبدو قبيحاً أو ارتداء ملابس بالية.

في مساء اليوم نفسه الذي سيق فيه الرجال، تعرضت القرية لغارة جديدة. فاختطفوا كل الفتيات والنساء الحسناوات. كانت سيرانوش من ضمنهن.

لم تصل أي أخبار عن سيرانوش أو رفيقاتها المختطفات لا في اليوم التالي ولا في الأيام التي تلت. هؤلاء الذين شاهدوا سيرانوش وبقية المختطفات قالوا بأنه تم شدهن من ضفائرهن وتقييد أيديهن وسوقهن على هذه الشاكلة.

عندما اكتشفت إسكوهي بأن هناك بعض القرى المجاورة، ومنها قرية أخت زوجها، لم تتعرض بعد لهجوم الدرك ، أخذت أولادها الثلاثة، هيرانوش وخورين وهيراير واتجهت إلى هناك. لكن الأمر لم يدم طويلاً على هذا الحال إذ سرعان ما دهم الدرك هذه القرية أيضاً، وهذه المرة جمعوا كل الرجال والنساء واقتادوهم إلى بالو. كانت هيرانوش وأمها وأخواها من ضمن هؤلاء.

وهناك في بالو تم عزل النساء عن الرجال حيث تم احتجازهن في ساحة الكنيسة، والإبقاء على الرجال في الخارج. بعد قليل سمع الأطفال والنساء صراخاً مروّعاً آتياً من الجانب الآخرمن الجدران

لكنهم لم يتمكنوا من رؤية ما يحدث لكون جدران الساحة عالية جداً. لقد وقفوا هناك يحدقون بعضهم إلى بعض؛ كانت الأمهات والجدات والأولاد يرتجفون وأياديهم متشابكة. كانت الساحة بأكملها ترتعد.

كانت هيرانوش وأخواه يمسكون بفستان أمهم، ورغم حالة الذعر التي كانت فيها، إلا أنها مستميتة لمعرفة ما الذي يجرى خلف الجدار. عند مشاهدتها إحدى الفتيات متسلقة كتفي فتاة أخرى لاستكشاف ما يحدث خلف الجدار، ذهبت إليها. كانت الفتاة لا تزال تنظر من فوق الجدار وعندما نزلت، بعد مشاهدة مطولة، روت ما قد شاهدته. لم تستطع هيرانوش طوال حياتها نسيان ما تفوهت به تلك الفتاة: 'كانوا يقطعون رقاب الرجال ويرمونها في النهر!'

بعد لحظات من انقطاع الأصوات، فُتحت بوابة الساحة المزدوجة الضخمة، وشكل الدرك رتلين وساقوا النساء والأطفال إلى خارج بالو. هناك سُمح لهم بالعودة إلى قراهم الأصلية، وعند الوصول إلى إلى قراهم وجدوها منهوبة؛ لقد قام قرويون مسلمون من قرى مجاورة بانتهاز الفرصة والقيام بنهب بيوتهم بما في ذلك الأسرة واللحف.

بعودتهن إلى البيوت، أدركت النساء بأنه لم يعد ممكناً بعد إقامة حداد على رجالهن، لذلك هرعن إلى الحقول والبساتين بحثاً عما يسد معدتهن الفارغة. حيث قمن معاً بجمع كمية كافية من المحاصيل التي كانت قد نضجت لكي يستطعن بها إطعام أنفسهن بضعة أيام؛ فمن

بتكسير القمح على أسطح منازلهن للحصول على البرغل؛ وسلقه، لكي يسكتوا جوعهن.

لم يكن لديهن فرصة للتفكير في الخطوة التالية إذ إن الدرك عاد إلى القرية؛ معلناً أنه تقرر نفي المتبقين بمن فيهم النساء طريحات الفراش. فتم تجميعهن مباشرة؛ هكذا بدأت مسيرة الموت الطويلة الأليمة.

عند وصولهن إلى جيرميك حماماشي (Çermik Hamambaşi)، كان عددهن قد تضاءل. كان الموكب المنهك والمستمر في التناقص بحاجة إلى الاستراحة والمبيت هناك، ومتابعة السير في اليوم التالي؛ كانت إسكوهي تحمل ابنها الصغير هيراير بلفة مربوطة إلى ظهرها. لقد أصرت طوال الطريق على عدم البقاء في نهاية المسير لذا كانت تركض قدر المستطاع وهي تمسك يدي طفليها الآخرين وتجرهما جنباً إلى جنب. لقد مات الكثير من الأطفال على الطريق، لكنها استطاعت المحافظة على أطفالها سالمين ومعافين. لقد كان الجوع والإرهاق والعطش قد تمكن منهن؛ لم يعد يملكن القدرة على المشي ونقل أقدامهن إلى الأمام. في النهاية سقطن منهكات على الأرض.

في هذه الأثناء تجمع حولهن سكان جيرميك، عارضين عليهن الطعام والماء مقابل ذهبهن وحليهن. إلا أن هؤلاء النساء اللواتي جفت خدودهن من شدة الجوع، كن قد فقدن كل أموالهن وممتلكاتهن الثمينة خلال الأيام الأولى من المسير والآن لم يبق معهن أي شيء.

كانت حشود الناس المتجمعة حول هؤلاء البؤساء في ازدياد مستمر؛ بعضهم يحدق بشفقة؛ وبعضهم الآخربكراهية. بعد قليل، بدأ بعضهم بالنظر إلى الأطفال، وعندما كانوا يرغبون في أخذ أحد الأطفال، حينذاك يبدأون بالتحدث مع أقرباء الطفل.

أراد عريف يمتطي حصاناً، تبيّن بأنه كان قائد درك جيرميك،الحصول على هيرانوش، بينما أراد حيدر أفندي من درك قرية كاراموسى (Karamusa)، الملاصقة لجيرميك، أخذ شقيقها خورين. بينما لم يرغب أحد في أخذ هيراير لكونه مازال طفلاً صغيراً. رغم جوعها وإرهاقها، قفزت إسكوهي مثل الصقر وخبأت أطفالها خلف ظهرها. ‘لا يمكن لأحد أن يأخذ أولادي مني، سوف لن أتخلى عنهم أبداً.’ قالت هذه الكلمات كما لو أنها تتحدى العالم كله. تقدمت تاكوهي، أم إسكوهي، باتجاهها ونصحتها بأن إعطاء الأطفال إلى هؤلاء الرجال هو في مصلحة الأطفال أنفسهم. كانت هيرانوش تسمع ما تقوله جدتها لأمها محاولة إقناع إسكوهي: ‘فتاتي، الأطفال يموتون الواحد تلو الآخر. لا أحد سينجو من الترحيل. إذا أعطيت أولادك إلى هؤلاء الرجال، سوف تحفظين حياتهم. وإذا لم تفعلي فإنهم سيموتون جميعاً. كلنا سنموت خلال هذا الترحيل. امنحي هؤلاء الأطفال الحياة، أقله أعطيهم لهؤلاء الرجال’.

اقتربت خالة هيرانوش إلى جانب جدتها. كانت هي أيضاً تعتقد بأن إعطاء هيرنواش إلى العريف هو الحل الأفضل. كلتا المرأتين حاولتا ما بوسعهما لإقناع إسكوهي، لكنها بقيت مصرة على رأيها.

وهن منشغلات بهذا الجدال، انقض الرجال عليهن وأمسكوا هيرانوش وخورين بيديهم. عندئذ قفزت إسكوهي إلى الأمام بكل قوتها لكن الدركي كان تواً قد رمى هيرانوش على ظهر حصانه. اندفعت إسكوهي باتجاه الحصان وأمسكت قدم الدركي بيد وهيرانوش باليد الأخرى وشدت بكل قوتها.

عند مشاهدته بأنه لن يستطيع تخليص نفسه من هذه المرأة بسهولة، أخذ الدركي السوط وبدأ بجلدها. رغم الألم، أبقت إسكوهي يدها معلقة بثبات حول يد هيرانوش وحاولت شد الطفلة من على الحصان بكل ما تملك من طاقة، وفي الوقت نفسه تناشد الرجل وتلعنه، وتأمره بإرجاع ابنتها إليها.

عندئذ بدأ الطفل هيراير، ابن الخمس سنوات، بالصراخ والبكاء. ظناً منها بأن أمراً مفزعاً قد حدث له، استدارت إسكوهي باتجاه الصوت؛ في هذه اللحظة بالذات ركل الدركي حصانه على بطنه، فقفز الحصان إلى الأمام واندفع بسرعة السهم وهيرانوش على ظهره.

هكذا افترقت الطرق بالنسبة لـ إسكوهي وهيرانوش في جيرميك حماماشي؛ لن تلتقيا مرة ثانية أبداً. أما بالنسبة لخالة هيرانوش وجدتها اللتين قالتا 'بأننا سنموت جميعاً' وأخوها الصغير هراير ابن الخمس سنوات، الذي انفجر بكاءً لأنه كان خائفاً من قيام الدرك بقتل أمه وأخته، فلم ينج أحد من هؤلاء خلال رحلة الموت.

بعد تعرضه لأزمة قلبية حادة، وتخطيها بفضل الرعاية الصحية الفائقة، كسرجدي التوقعات من خلال اتباعه نظام حمية غذائية، مع ذلك فقد توقف قلبه في أحد أيام الشتاء، وتوفي. بعد وفاة جدي، ونزولاً على رغبة أولادها وأحفادها، تخلت جدتي عن بيتها ووزعت حاجاتها. منذ تلك اللحظة، قسمت وقتها بين أولادها، متنقلة من بيت إلى آخر حتى أيامها الأخيرة في غيبزى. الحفيدة الوحيدة التي كانت تفضل البقاء في بيتها هي هاندان؛ كانت تقول بأنها تشعر بالراحة التامة هناك، وكلما سافرت بين الإلازه وإدريميت وإسطنبول لابد أن تتوقف بعض الوقت في بيت هاندان في أنقرة، والبقاء أطول مدة ممكنة هناك.

تزوجت هاندان في سنة مبكرة جداً وكرّست حياتها للعناية ببيتها. أما أنا فقد تم تسجيلي في معهد إعداد المدرسين كونها أقصر طريق للدخول إلى الحياة العملية وفي الوقت نفسه البدء بمساعدة عائلتي. قمت بالتدريس في مدارس أنقرة بحيث استطاع خالوق تكملة دراسته هناك في الجامعة،«قبالة باب بيتنا» بحسب تعبير أمي؛ هكذا أتينا إلى أنقرة. إلى حين انتهاء خالوق من دراسته، عملت عملاً إضافياً خارج

ساعات التدريس. في السنة التي تخرج فيها خالوق، تقدمت إلى امتحان القبول الجامعي وحصلت على مقعد في كلية الحقوق. فرحت جدتي كثيراً حين سمعت بذلك؛ مرة أخرى كنت عند حسن ظنها. على الرغم من أن أفكاري السياسية وموقفي المعارض للنظام كانت تقلقها، لكنني كنت أحس أنها ضمنياً تدعمني في ذلك، وأعتقد أن كل هذا كان يزيد ثقتها بي.

بدأت عيناها في الأونة الأخيرة تزعجانها وبدأ نظرها بالتراجع. رغم العملية والنظّارات الطبية- سماكتها بقدر سماكة قعر القارورة نفسها – إلا أن نظرها كان يتراجع يوماً بعد يوم.

كم هو فقدان القدرة على الرؤية بالحظ السيئ بالنسبة لامرأة بحيوية ونشاط واجتهاد وسرعة بداهة كجدتي. لكن لحسن الحظ كانت كل البيوت التي عاشت فيها بيوتاً تثق بنظافتها. كانت ماتزال بواسطة نظّاراتها السميكة تستطيع الذهاب إلى الحمام وغرفة النوم. 'لقد انطفأ نور عينيّ' هكذا كانت جدتي تصف عينيها.

في كل مرة نتقابل، كنت أمسك يدها وأقبلها وأقول 'جدتي.' وهي بدورها ترد 'جدتي'، ثم تنطق اسمي وتسأل، 'هل هي أنت؟' بعدها تشد على يدي الاثنتين وتطرح سلسلة لامتنهية من الأسئلة . لم تكن تترك أي تفصيل ولا تنسَ أبداً أي شيء؛ كانت تريد معرفة كل شيء. خلال أحاديثنا تلك، لم تكن تترك يدي قط.

كانت لجدتي ذاكرة قوية جداً. عندما كانت تحدثنا عن شيء ما

حدث قبل ٥٠ عاماً، كنا دائماً نندهش بالطريقة التي تستطيع بها تذكر أدق التفاصيل. وكانت ذكية جداً.

أثناء إحدى زياراتي لبيت هاندان، سمعت بأنها موجودة في غرفة ولدي أختي، إفريم و أوزغور، اللذين كانا ما يزالان حينذاك في المرحلة الابتدائية من الدراسة. بينما كنت أسيرفي الممر، سمعت صوت نقاش آتياً من تلك الغرفة؛ توقفت كي أستمع. كان الولدان يحاولان إعادة قراءة الدرس وكانت جدتي تصحح الأخطاء وتذكرهما بالمقاطع التي تجاوزاها. تابعت الاستماع. ثم أتت هاندان من المطبخ، فأشرت لها بأن تبقى هادئة، تابعنا معاً الاستماع. كانت جدتي تساعد أولاد أحفادها في دروسهم. كان على الأولاد أن يقرأوا مقاطع منَ وظائفهم المدرسية وجدتي تستمع وبعدها كان الأولاد يغلقون الكتاب ويحاولون سرد ما قرأوه عن ظهر قلب. عند سماعها المقطع لأول مرة ولمرة واحدة فقط، كانت جدتي تستطيع تذكر كل كلمة جاءت فيه؛ كانت قادرة على تصحيح أخطاء الأولاد، وملء التفاصيل التي فاتتهم. كانت تطلب منهم إعادة قراءة الدرس إلى حين التحقق من أنهم تعلموه بشكل تام.

* * *

في أحد الأيام من عام ١٩٧٥، أثناء إقامتها معنا في أنقرة، قالت لي: ' إذا كنت غير مشغولة، تعالي و اجلسي بجانبي، ثمة أمرهام أود أن أخبرك به.' ذهبت وجلست معها فأخذت يدي و وضعتهما بين يديها وقالت: 'هل تعلمين بأن أمي وأبي وأخي كلهم يعيشون في أميركا، وأن خالكِ أضاع عنوانهم. إذا كان هناك من يستطيع العثور عليهم فهو أنت. فهل تفعلين؟'

لقد بدا من نبرة صوتها الرتيب واختيار كلماتها أن قرارها للتحدث معي كان صعباً للغاية. في البداية لم أستطع استيعاب ما قالته تماماً.

'جدتي، عم تتحدثين؟! هل لدينا أقارب يعيشون الآن في أميركا؟!' قلت دون أخذ كلامها على محمل الجد.

لكن جدتي كانت جدية جداً. فأكملت 'لا أعرف عنوانهم، لكنني أعرف أنهم يعيشون في أميركا، في نيويورك.'

'حسناً يا جدتي، لماذا ذهبوا إلى أميركا؟'

'لقد ذهبوا، هذا كل ما في الأمر.'

'متى ذهبوا إلى هناك؟'

'عندما كنتُ طفلة.'

'حسناً، لماذا لم يأخذوك معهم؟'

'كنت سأذهب لاحقاً، لكن خالك محمود قطع العلاقات. لقد أضاع عنوانهم.'

كنت مشدوهة تماماً. أمتلأ رأسي بالأسئلة لكن لم أستطع فهم أي شيء من إجاباتها. على مدار أيام حاولت الحصول منها على معلومات أكثر، لكن لم أتمكن من معرفة أكثر من حقيقة أن أباها وأمها الحقيقيين يعيشان في أميركا. لقد قيل لنا دائماً بأن جدي وجدتي هما أولاد خالات. فتبين بأن هذا لم يكن صحيحاً. لقد قيل لنا بأن جدتي من بلدة جيرميك، وهذا أيضاً لم يكن صحيحاً. الكثير من الأمور التي اعتقدنا أنها صحيحة، تبين الآن بأنها زائفة.

لكن خلال بحثي عن عائلة جدتي، توصلت إلى العديد من الحقائق. بقيت أضغط على جدتي للحصول على المزيد من المعلومات، كنت أحرص دائماً على القيام بذلك فقط عندما أكون متيقنة بأننا وحدنا. في ذلك الوقت لم أخبر أي شخص بما سمعته، ولم أشارك أحداً في الحالة التي دخلت فيها. لا أستطيع تحديد سبب عدم قيامي بذلك، هل كان نزولاً على رغبة جدتي، أو لشعوري بالعار؛ لكنني كنت أخفي ما أسمعه عن الآخرين: لقد انقلب عالمي رأساً على عقب، محنتي أصبحت عميقة جداً، وكنت أحاول بمفردي انتشال نفسي منها.

لقد تشكل بيننا رابط سري من نوع خاص. شعرت بأنها تتوق إلى تخليص نفسها من العبء الذي حملته طوال تلك السنين- التوق إلى فتح الستائر التي حجبت وراءها سرها؛ الحاجة إلى سرد هذه القصة التي لم تتشارك فيها مع أي شخص من قبل - لكن أعتقد أنها، حتى ذلك اليوم، كانت تحميني وذلك بالامتناع عن تزويدي بمعلومات إضافية لخشيتها من التأثير العميق الذي قد يتركه في حياتي.

بقيتُ مستمرة على تشجيعها على الكلام؛ في النهاية بدأت التحدث. أثناء سردها للأحداث التي عاشتها، كان صوتها يتضاءل تدريجياً، ولا تعاود الكلام في الموضوع إلا بعد أسئلتي الملحة. على الرغم من ذكرها للأحداث، إلا أنها لم تحاول شرحها، كما أنها بدت مترددة خصيصاً في البوح بأفكارها أو في وصف مشاعرها.

'اسمي هيرانوش. اسم أمي إسكوهي، و أبي هو هوفانيس؛ الذي كان موجوداً في ذلك الوقت مع اثنين من أعمامي في أميركا. لدي شقيقان. كانوا ينادون جدي بـ هايرابيد أفندي. شخص حكيم وذو رأي محترم ليس في قريتنا فقط بل في المنطقة بأكملها؛ الكل كان يستشيره. كانت قريتنا كبيرة نوعاً ما؛ كان لها ثلاثة مخاتير.' على هذا النحو بدأت جدتي القصة.

مضت تروي كيف أتى الدرك إلى القرية في أحد الأيام وأخذوا الرجال، بمن فيهم جدها واثنان من أعمامها وخالها ولم يعد منهم أحد؛ كيف التجأت أمها مع أولادها إلى قرية أخت زوجها؛ كيف

أتى الدرك فيما بعد إلى تلك القرية، وجمعوا الكل، الرجال والنساء، وأخذوهم إلى بالو؛ كيف جزوا رقاب الرجال ورموها في النهر؛ كيف تحول لونه أياماً متتالية إلى أحمر نتيجة الدماء؛ ثم بدأت بوصف مسيرة سوق النساء والأطفال التي كانت هي ضمنهم.

'خلال مسيرة التهجير كانت أمي قلقة جداً إذ إنها كانت تحاول باستمرار تجنب السير في نهاية الرتل لذلك كانت تسير بسرعة كبيرة، ولأننا لم نستطع أن نلحق بها كانت تسحبنا بيديها. كنا نسمع أصوات الناس في الخلف وهم يبكون ويصرخون ويناشدون. في كل مرة يحدث ذلك، كانت أمي تسرّع في خطواتها أكثر، لمنعنا من رؤية تلك المشاهد. في مساء اليوم الأول من المسير، اثنتان من خالاتي جاءتا تركضان من الخلف للالتحاق بنا، كانتا تبكيان بشكل هيستيري.'

هنا توقفت جدتي. أخذت نفساً عميقاً؛ قبلتُ يدها. تابعت:

'كانت زوجة خالي الحامل مريضة، ولم تعد تقوى على المشي، فقام الدرك بقتلها بالحراب. رموا جثتها إلى جانب الطريق.'

'خلال المسير كان يتم قتل كبار السن والذين لا يعودون يقوون على المشي، بالحراب وتركهم هناك، تماماً في المكان الذي سقطوا فيه. لقد تركوهم في العراء على هذه الحالة في أعالي الجبال.'

بينما هي تروي هذه القصة المؤلمة التي بالكاد يمكن تصديقها، لاحظت بأن جدتي لا توجه نظرها باتجاهي، بل بدلاً من ذلك ثبتت

عينيها على نقطة في السجادة؛ وفي أثنائها كانت تمسك بيدي اليسرى بقوة وتستمر في تحريك يدها اليمنى بطريقة متواترة، ممررة إياها على فخذها، كما لو أنها تكوي فستانها، تمسد التجاعيد، مكررة ذلك دون أن تعي ما تقوم به. حالما أدركتُ أن سردها لهذه القصة هو أمر متعب جداً بالنسبة لها، فكرتُ في طريقة تريحها بعض الوقت. كانت مولعة جداً بالقهوة ذات الرغوة. لذا سألتها 'جدتي، ألا ترغبين في فنجان قهوة من صنع يدي؟' لم تسمعني. استمرت في تحريك يدها على المنوال نفسه وهي تمسد بشكل لطيف جيئةً وذهاباً. أخذت يدها اليمنى بيدي وقبلتها. كررت السؤال. هذه المرة سمعتني، فقالت: 'قهوتك جيدة وذات رغوة، نعم، لا مانع من قيامك بإعداد القليل منها.'

عندما أحضرت قهوتها، رأيتها قد رفعت رأسها، تنظر إلى السقف على طريقة الذين يحاولون تذكر شيء ما. عندما رأتني، أومأت لي مباشرة بالجلوس إلى جانبها. ما عاشته هذه المرأة يصعب تصديقه وبعد طمر هذه الذكريات سنوات طويلة، فرضت على دماغها ضريبة تحويلها إلى كلمات، من خلال سرد القصة. وضعتُ فنجان القهوة في يدها، وأكملتْ:

'بعد عبور جسر مادين – في هافلار (Havler) – رمت جدتي حفيدتين من أحفادها في الماء. هما ابنتا عمي. كان والداهما قد قُتلا، ولم تكونا قادرتين على المشي. إحداهما غرقت مباشرة لكن الطفلة الأخرى بقي رأسها ظاهراً فوق الماء. جدتي – والدة أبي– دفعت

رأسها لتغطسها لكن رأس الطفلة طاف مرة أخرى على سطح الماء، وكانت هذه هي آخر مرة ترى فيها العالم، فقامت جدتي من جديد بدفع رأسها مرة أخرى.... بعدها رمت هي أيضاً نفسها في تيار الماء المتدفق بشكل جنوني واختفت من المشهد.'

هنا صمتت جدتي. لقد كان الأثر العميق لهذا الجزء من المأساة واضحاً عليها من خلال استمرارها في تكرار سرد هذه الحادثة. في السنوات التالية، أشارت مرات عديدة إلى هذه الحادثة ، وفي كل مرة كانت تختمها بصمت عميق.

ثم أكملت جدتي تخبرني بما حدث خلال توقفهم في جيرميك حاماباشي؛ كيف رفضت أمها اتباع نصيحة أختها وأمها؛ كيف كانت أمها قد رفضت التخلي عن أطفالها؛ كيف تم أخذها عنوةً.

'أخذوني إلى بستان. يشع خضاراً، كبساتين قريتنا؛ الأشجار ممتلئة بالفاكهة. وثمة جدول يمر من منتصف البستان مياهه صافية كالكريستال. كانت هناك ثماني بنات من قريتي في ذلك البستان؛ تم أخذ هن جميعاً بالطريقة نفسها التي أُخذت بها.'

'ملأوا معدتنا بطعام ساخن، وسمحوا لنا بقطف الفاكهة من الشجر. بعد برهة اشتقت لرؤية أمي، فوعدوني بأنهم سيأخذونني إليها. بعد ذلك لعبنا في البستان. قطفنا الإجاص والتفاح من الشجر، شربنا الماء البارد من الجدول.'

في مساء ذلك اليوم، تم أخذ البنات من البستان واحدة تلو الأخرى إلى بيوت منفصلة. وأتى قائد الدرك إلى الحديقة لأخذ هيرانوش. لم ترغب في الذهاب معه. 'بدأتُ بالبكاء، قلت «اشتقت إلى أمي!» وبكيتُ طوال الليل حتى طلوع الفجر.'

''لقد أدركوا أنه لا مفر من ذلك، لذلك أخذوني في صباح اليوم التالي إلى حمامباشي. وصلت إلى هناك، وكانت خالية تماماً؛ لم يكن هناك أي شخص. اكتشفت بأنهم أخذوا أمي والآخرين بعيداً؛ أبقوني طوال الليل وأرجعوني في الصباح لكي يقضوا على كل آمالي. علمت بأنه قد تم ترحيل أمي والآخرين باتجاه سيفيريك (Severek). فيما بعد كنت كل يوم أنظر إلى جبال سيفيريك وأبكي.'

فجأة قُرع باب المنزل؛ هناك أناس قادمون. توقفت جدتي عن إكمال سرد الأحداث. على أية حال لم أعد أملك طاقة الاستماع للمزيد. لم أستطع منع نفسي من الركض إلى الشارع والبكاء والصراخ. لم أكن لأصدق أي شيء من هذا القبيل قط، لو لم تكن جدتي هي التي تروي.

إن ما سمعته لا يتوافق مع أي شيء عرفته في حياتي. لقد قلبت العالم المعروف بالنسبة لي رأساً على عقب، محطمةً قيمي آلاف القطع. لم أعد أدرك ما هو شعوري الحقيقي؛ بينما أفكارٌ أولية تتضارب وتخفق وتدور في عقلي، استسلمت لفزع عميق يهدد بابتلاع كل شيء.

لم تكن بعض الصور تفارق عيني سواء أكانتا مغمضتين أم

مفتوحتين: الحشد المتجمع في ساحة الكنيسة، وخصوصاً حدقات عيون الأولاد، والأطفال الذين تم رميهم في النهر، وصراعهم على البقاء أحياء؛ رؤوسهم الغاطسة في الماء؛ اللحظة التي تم فيها خطف هيرانوش من حضن أمها....إلخ . ومن ثم، بعد استرجاع كل هذه الأشياء، أتذكر الأناشيد التي كنت أتلوها في الأعياد الوطنية.

لقد كان أساتذتي، باعتباري واحدة من أفضل الطالبات في الصف، يطلبون مني قراءة أشعار بطولية في كل مناسبة وطنية. كنت أنشد تلك القصائد عن 'ماضينا المجيد' بأعلى صوتي وبحماسة شديدة؛ لكن الآن لم أعد أستطيع تذكر كل ذلك بعيداً عن صور حدقات عيون الأطفال المتوسعة من الخوف، ورؤوسهم وهي تغوص في الماء، والنهر الذي انقلب لونه إلى أحمر عدة أيام من كثرة الدماء.

لم أستطع النوم نهائياً تلك الليلة. في اليوم التالي كنت أمشي تائهة كالشبح. جدتي وأنا لم نكون وحيدين في البيت في ذلك اليوم؛ لم نستطع التحدث في الموضوع.

في هذه الأثناء تذكرت شيئاً مما كانت جدتي قد قالته. ففي مرحلة الطفولة، كنا نخاف من المقابر، ونحاول إخافة بعضنا بعضاً بقصص مخيفة عن المقابر والأشباح. كانت مقبرة مادين على طريق الحدائق التي اعتدنا الذهاب إليها في النزهات.

كانت جدتي عندما تلاحظ خوفنا خلال مرورنا عبر المقبرة، تقول: 'لاتخافوا الموتى ، يا صغاري، لم يعودوا قادرين على إيذائكم.

الشر يأتي من الأحياء وليس الأموات.' فهل يا تُرى كانت جدتي، حين تقول هذا الكلام، تفكر في الأحداث التي ترويها لي الآن؟ لم أسألها، لكنني أكد أجزم بأنها كانت تقصد ذلك.

* * *

منذ ذلك اليوم وحتى آخر يوم في حياتها، تشكّل بيني وبين جدتي تحالف لم يعلم به أحد؛ تشاركنا في السر، وهذا ما أبقانا قريبتين حتى يوم وفاتها.

على الرغم من الزيارات المتكررة إلا أن فترة طويلة مرت قبل أن نتمكن جدتي وأنا من التحدث من جديد. ربما كان هذا في مصلحتنا؛ فقد كانت فرصة لاستيعاب ما روته لي، ومفيدة إلى حد ما في حل الأفكار المتناقضة التي حفزتها قصتها.

في أحد الأيام، عندما وجدت جدتي وحدها في المنزل، أخذت يدها بيدي وقبلت وجنتيها الطريتين، وطلبت منها أن تكمل القصة من حيث توقفت؛ يبدو أنها هي أيضاً كانت ترغب في المتابعة، فبدأت بالكلام دون توقف:

'الرجل الذي أخذني هو العريف حسين، قائد درك مخفر جيرميك. كان هو وزوجته أسمى يتمنيان بشدة أن يكون لديهما أطفال، لكنهما لم يرزقا أي طفل قط. كان حسين - يرحمه الله ويجعل مثواه الجنة- رجلاً طيباً. كانت لديه سلطات تضاهي سلطة ضابط برتبة رائد. اعتبرني بمنزلة ابنة حقيقية ورعاني بشكل ممتاز.

'اعتادوا مناداته بـ«الرجل ذي القلب الطيب». كان أرمن جيرميك قد تم ذبحهم ورميهم في بئر بلا قاع. كانت هناك، بين جيرميك وجونغوش (Çüngüş)، بئر ماء يسمونها دودين (Düden)، قيل إنها بدون قاع. بعد قطع رؤوس الأرمن تم رميها في هذا الـ دودين. كان العريف حسين قد أُرسل من أجل ذبح الرجال، وليس لرمي النساء والأطفال في الـ دودين؛ لذلك رفض إطاعة الأوامر. قيل بأنه تعرض للعقاب بسبب ذلك.'

لعدم قدرتي على التحمّل أكثر، قاطعتها:

'جدتي، إذا كان العريف حسين ذا قلب طيب كما يقولون، ألم يؤلمه أن يرى الرجال يُذبحون ويرمون في البئر؟'

بعد أن فكّرت لحظة، ردت جدتي:

'كيف كان لي أن أعرف؟'

لم تمنحني فرصة لسؤالها مرة أخرى، تابعت سرد قصتها. كان واضحاً لي بأنها كانت تحب العريف حسين بشكل كبير، وبأنها لم تكن تسمح لنفسها مجرد الشك فيه، أو السماح للآخرين بالقيام بذلك.

'أطلقوا عليّ اسم«سهر». تعلمت التركية بسرعة. كنت أنفذ كل ما يطلبونه مني. لكن أسمى هانم لم تكن تتقبلني.'

'لقد أراد العريف حسين أن أناديه أبي. كان يفرح كثيراً عندما كنت أفعل ذلك.«ناديني أبي مرة أخرى، يا فتاتي» كان يقول.

'في أحد الأيام قام أحد أولاد الحي بشتم أبي في الشارع. غضبتُ جداً وشتمتُ أباه بتعبيره نفسه. في مساء اليوم نفسه أتت أم هذا الولد إلى البيت لتشتكي، بأنني قد استخدمت كلمة مسيئة. بعد مغادرة المرأة، دعاني العريف حسين إلى جانبه. ذهبت إليه منحنية الكتفين، متوقعة العقوبة. سحبني إلى جهته وقال، «أخبريني يا ابنتي، ما الذي حدث اليوم؟» فقلت له بأن ذلك الولد هو من قام في البداية بشتم أبي، وبأنني بعدها قلت له«بل إن أباك هو ...... واستخدمت الكلمة السيئة نفسها. كلامي هذا أسعده كثيراً، و بعد ضحكة من القلب، قال:«أحسنت يا طفلتي. كرري لي كيف كان ردك؟»

فأعدت سرد ما جرى مرة أخرى . في ذلك اليوم والأيام التي تلت أعاد القصة مرات ومرات. وكان في كل مرة، بعد أن يضحك يمسد شعري ويقول: «أحسنت يا طفلتي»

'في أحد الأعياد، رجع العريف حسين إلى البيت ومعه قطعتا قماش حرير؛ أنا وأسمى هانم استقبلناه بتقبيل يده. فتح الحزمة التي في يده وعرض القطعتين المصنوعتين من مغزل الحرير نفسه، قائلاً«انظرا ماذا أحضرت لكما».

'عندما رأت أسمى هانم بأن كلتا القطعتين مصنوعة من الحرير نفسه، غضبت وغارت، ونطقت بالكلمات التالية:«إذا كانت الخادمات والجواري يلبسن حريراً، ماذا تلبس سيدة المنزل في هذه الحالة؟»

'حينذاك أدركت أنني مجرد خادمة. غضب العريف حسين على

زوجته فرمى قطع القماش على الأرض وصرخ «الله يعمي بصيرة السلطان رشاد الذي حول كل المربيات الساذجات إلى سيدات ذوات مكانة، والأطفال الأذكياء إلى خدم لهن.» تلفّظ بهذه العبارة وغادر البيت ولم يعد إلا في المساء.'

لقد تسبب كلمة خادمة بجرح عميق لجدتي . أخبرتني مراراً بهذه الحادثة وأمثالها. كل مرة كانت تحس بالجرح بألم المرة الأولى نفسه، وتكمل قصتها على هذا المنوال:

'هكذا وجدت نفسي أُعامل كخادمة، بعد أن كنت فتاة مدللة من عائلة لها مكانتها ؛ كنتُ قرة عين أمي، وجوهرة جدي الثمينة. مهما بكيت في أعماقي فإن هذا لن يغير الواقع؛ حتى لو عاملني حسين كابنته، فإنني أبقى خادمة.'

بابتسامة مرسومة بالألم، أكملت جدتي:

'بعدها، في يوم آخر، تشاكست معي طفلة كانت تحاول أن تأخذ بعض الخبز من يدي ولم أسمح لها بذلك فرمتني بالحجارة، دفعتها؛ سقطت على الأرض وبدأت تبكي. خرجت أمها ونادت أسمى هانم.

«أسمى هانم! أسمى هانم! هلا خرجت وتوليت أمر خادمتك؟ فهي تضرب الأطفال.»

مضت جدتي تخبرني بأن أسمى هانم عاملتها بالفعل كخادمة؛ إذ إنها لم تحتمل أن ترى زوجها فخوراً بـالبنت سهر؛ بمجرد أن أصبحت

شابة، بدأت أسمى هانم تخشى من إقدامه على اتخاذها زوجة، ومن تلك اللحظة أصبحت غيورة وعاملتها بشكل سيئ للغاية؛ لكونها غير قادرة على الإنجاب، كانت تخاف دائماً بأن يقدم زوجها على الزواج ثانيةً.

'هكذا عشت في هذا البيت حتى رحيله؛ إذ كما تعلمين: الخيّرون يرحلون باكراً. والعريف حسين مات شاباً.'

بعد موت العريف حسين، أمضتْ جدتي أوقاتاً صعبة. لكن بدلاً من أن تخبرني عنها، ذكرتْ فقط ما يلي:

'كنا ثماني فتيات من القرية نفسها، نعيش حينذاك جميعاً في جيرميك. كل منا تعيش في بيت منفصل. وكنتُ أنا «صاحبة الحظ الأسوأ فينا.» بحسب تعبيرهن.

أما أخي خورين، الذي كان قد تم أخذه من قبل حيدر أفندي من قرية كاراموسى (Karamusa) – لم يعد اسمه خورين بعد، بل أحمد. كان يعمل راعي مواشي، لذا كانوا يسمونه 'أحمد الراعي.'

في أحد الأيام، عندما أتى أحمد الراعي إلى جيرميك لزيارة السوق، رأته إحدى فتيات قرية هباب وتعرّفت إليه. أخبرته بعنوان سكن أخته الجديد، وعائلتها و اسمها الجديد. بالسرعة نفسها وصلت الأخبار إلى سهر، أخت الراعي أحمد.

كلاهما رغب في الالتقاء. لكن أسمى هانم لم تمنح جدتي الإذن لرؤية أخيها. مع ذلك لم تتمكن من منعهما من الالتقاء.

'لم ترغب أسمى هانم أن نلتقي أنا وأخي. لم تسمح له بدخول البيت، لكننا مع ذلك تمكنا من رؤية أحدنا الآخر. كلما قدم إلى البلدة كنا نلتقي في السر ونتحدث.'

منذ ذلك اليوم فصاعداً، كلما التقيا في السر، تشارك الأخ والأخت في كل خبر مهما صغر عن مصير أمهما. لقد اكتشفا بأن الناجين من التهجير قد رُحلوا إلى حلب. على الرغم من عدم وجود معلومات مؤكدة حول من نجا ومن مات خلال الترحيل، إلا أن الإشاعات كثيرة. وصفتْ جدتي الإشاعة الأكثر تهامساً بهذه الكلمات: 'قيل بأنه وصلت أوامر إلى بادية أورفة بوقف عمليات القتل. وتم نقل الناجين إلى حلب.'

بعد استراحة قصيرة، أخبرتني عن لقائها بخالتها:

'في أحد الأيام بينما كنت أنظف أمام المنزل، قدمت امرأة وتوقفت في الشارع. رفعت رأسي ونظرت إليها، تسمرت في مكانها وجلست تبكي بمرارة. كانت هذه المرأة التي ترتدي ملابس الـ *Kofik* الملونة الخاصة بكورد المنطقة، هي خالتي سيرانوش التي كان قد تم اختطافها في تلك الغارة.»

مدفوعة بالفضول والتأثر، أمطرتها بأسئلة: 'من هم الرجال

الذين اختطفوا سيرانوش، إلى أين أخذوها، كيف استطاعت الوصول إليك؟'

ربما لم ترغب جدتي أن تخبرني شيئاً عن الذين اختطفوا سيرانوش، وعما جرى معها بعدئذ، وربما لا تعرف. تركتْ كل أسئلتي دون جواب، و قالت فقط ما يلي:

'تزوجتْ كوردياً من بلدة سيفيريك وعاشت حياة مريحة.'

بالعودة بالحديث عن لقاءاتها مع خالتها، أكملت قصتها. كانت خالتها قد تتبعت كل دليل، وتحدثت إلى كل من بإمكانه المساعدة وسألت في كل الأماكن عن أقاربها، وعندما علمت بأن ابنة أختها تعيش في جيرميك (Çermik) ذهبت لرؤيتها محملة بالهدايا. تعانقت الخالة وابنة الأخت عند الباب؛ وبكتا بصوت عالٍ وهما تتمايلان حزناً. وبينما هما على هذه الحالة أتت أسمى هانم إلى الباب؛ فرفضت دخول الخالة إلى البيت ورفضت قبول هداياها، وطردتها.

فجأة عادت بي الذاكرة إلى أيام الطفولة. فتذكرت أنه عندما كنا في مادين، زارتنا امرأة مع حفيدها. قالوا حينذاك بأنها خالة جدتي. مازلت إلى يومنا هذا أتذكر وجنتيها الورديتين ووجهها الجميل البهي. وأيضاً لباسها المخملي متعدد الطبقات والألوان. للتحقق، سألت جدتي: 'في مادين، عندما كنا نعيش في البيت المقابل للنافورة، زارتنا سيدة مع حفيدها.....'

'نعم هي ، بعد زواجي جدك، كنا نلتقي كثيراً.'

تذكرت تفصيلاً آخر عن جدتي وخالتها. فقد طلبت هذه السيدة ذات الخدود الحمر يد خالتي صباهات للزواج بحفيدها. حاولتْ بشدة إقناع جدتي، لكن دون جدوى. كان جواب جدتي واضحاً ومقتضباً وجازماً: 'لن أزوج ابنتي من الأقارب!'

عندما تقدم أقارب جدي بالطلب نفسه، كان رد جدتي، رغم كل جهود جدي، هو نفسه: 'لن أزوج ابنتي من الأقارب!'

كانت أخت أسمى هانم وزوجها قد توفيا في سن مبكرة. فظل ابن أختها فكري، ابن الخامسة عشرة، دون أب وأم، وعمل وولي أمر يرعاه. كان فكري ولداً كسولاً لم يتمكن من تعلم أي مهنة. زوجوه جدتي، ظناً منهم أنها ستعرف كيف تعالج ولداً ميالاً إلى صرف وقته مع كسالى البلدة. حسب السجل (فقط في السجل) كانت جدتي، ابنة حسين وأسمى، قد تزوجت ابن خالتها؛ أحدهما كان في الخامسة عشرة والآخر في السادسة عشرة من العمر.

'بعد ولادة خالكِ محمود، التحق جدكِ بالخدمة العسكرية. في أحد الأيام ، بعد إنهاء الخدمة، عاد إلى البيت وهو يلهث: «عندي لكِ أخبار سارة تستحق المكافأة .» فقلتْ وأنا خائفة ومتأثرة: «اللهم خيراً». فقال «والدكِ أرسل رسالة إلى أخيك. وسيجلبها معه غداً.»

'من شدة الفرح والتأثر لم أستطع النوم تلك الليلة. في اليوم التالي جاء خورين، وعندما تناول الرسالة من جيبه بدأ قلبي يخفق بقوة بحيث اعتقدت بأنه سينفجر. أخرج الرسالة من جيب ملابس العمل وفتحها بعناية فائقة. نظر كلانا إلى الرسالة لكننا لم نتمكن من فهم أي شيء منها؛ كانت مكتوبة بالأرمنية القديمة. كانت هدية هانم تستطيع قراءة الكتابة القديمة، فاستعنا بها لفك أحرفها لنا. فعرفنا ماذا كان قد حصل لأمي، وكيف تمكنت من التواصل مع أبينا؛ وأنه عاد من أميركا إلى حلب للبحث عنا.'

'بحسب الرجل الذي جلب لنا الرسالة، أبونا موجود في حلب منذ فترة ويبحث عنا بمساعدة مهربين.'

'الرجل الذي أحضر الرسالة يعمل مهرباً على الحدود السورية-التركية؛ وهو الآن ينتظر ردنا لكي يوصله إلى أبينا. كتبنا رسالة بالأحرف الحديثة وأعطيناها لهذا الرجل. بعد مرور فترة من الزمن، وصلت رسالة جديدة من أبينا، ومعها نقود. يريد نا أن نذهب إلى حلب.'

'بقيت أتوسل إلى جدك عدة أيام، وفي النهاية اتفقنا على الذهاب معاً. في هذه الأثناء كانت والدتكِ قد ولدت. هيأنا أنفسنا للسفر.'

'باع مواشينا وجمعنا أغراضنا، لكن خالته، التي تتمتع ببعض النفوذ في العائلة، تمكنت من تغيير تفكير جدكِ. «فكّر جيداً يا بني! سوف يأخذون ابنتهم ويتركونك هناك وحيداً مع أولادك. إياك والتفكير في السفر.» بكلامها هذا أدخلت الخوف في قلبه.

'بعدئذ تمكنت خالته من إقناع بقية أفراد العائلة من أجل الضغط عليه، هكذا في النهاية قرر جدكِ عدم الذهاب وعدم السماح بذلك لي وحدي. كما تعلمين، كان جدك رحمة الله عليه رجلاً بسيطاً وسهل الانخداع. هكذا أنا بقيت، لكن خورين ذهب. لقد تجرأ وعبر الحدود إلى حلب، بصحبة المهربين الذين كانوا يعملون لحساب أبي. عندما ودّعته شعرت كما لو أنني أرسله مع آخر قطعة من قلبي.'

'كانت قد مرت سنوات، وكنت قد فقدت أي أمل، قبل أن تصلني رسالة من خورين. لقد تمكّن من العثور على أبي وسافرا معاً إلى أميركا. بدأنا نتبادل الرسائل. أرسلوا لنا صورهم، ونحن بدورنا دعينا المصور إلى البيت لكي يلتقط لنا صوراً أيضاً، وأرسلنا إليهم بعض الصور. في السنة التي أنهى فيها خالكِ محمود الثانوية، أرسلوا رسالة ومعها مبلغ من المال، بحيث أستطيع شراء بطاقة طائرة لزيارتهم في أميركا.'

«إذا كان بالإمكان، تعالي ولو بضعة أشهر، نحن مشتاقون لرؤيتك» هذا ما كتبوه.



مرسيليا، في الطريق إلى أميركا؛ ١٩٢٨ - ١٩٢٩. خورين الواقف في أقصى اليسار، لابساً ساعة جديدة وسلسالاً. هوفانيس الجالس أمامه



هذه الصورة كانت مرفقة برسالة خورين الأولى من أميركا إلى أخته. إسكوهي الواقفة في أقصى اليسار، الصف الخلفي، إلى جانبها خورين. الجالسان في الوسط هما هوفانيس وأخوه هرانت.

'في ذلك الصيف، سافر خالكِ بدلاً مني. كان أهلي يتوقعون قدومي أنا، وعندما وجدوا بدلاً من ذلك خالك، أصيبوا بخيبة أمل، وعاتبوه:«كنا ننتظر أمك، لماذا لم تحضرها معك؟»

'اهتم كل من خورين وأختي التي ولدت في أميركا به اهتماماً يفوق الوصف؛ اصطحباه لرؤية الكثير من الأماكن السياحية واقترحوا عليه أن يكمل دراسته في أميركا. لكن بعد جداله معهم، قطع خالك التواصل معهم جميعاً؛ عندما عاد قال«لقد فقدت عنوانهم» وتوقف عن التواصل معهم. منذ ذلك الوقت لم يعد هناك تواصل بيننا، لكن

مازلت أتذكر أسماؤهم والمدينة التي يعيشون فيها. إذا زودتكِ بهذه المعلومات، هل بإمكانكِ العثور عليهم؟'

'جدتي، لماذا أنت لم تذهبي؟ كانوا قد أرسلوا لكِ النقود اللازمة للسفر!»

'لم تكن عندي لا شهادة ميلاد ولا جواز سفر. قالوا لي إن عملية الاستحصال عليها صعبة للغاية. في أحد الأيام عاد خالك إلى البيت، وقال: «لقد حصلت على جواز سفر لي، وسوف أسافر إلى أميركا.» على الرغم من رغبتي الشديدة في الذهاب وعدم إمكانية تحققها، إلا أنني كنت فرحة بأن ابني سيلتقي جدته وجده ويقبل أياديهما.'

'جدتي، لاستخراج شهادة ميلاد وجواز سفر لست بحاجة لأحد؛ كنت تستطيعين القيام بذلك بنفسك، لماذا لم تحاولي؟'

'كيف لي أن أعلم؟'

كلما وجدت صعوبة في توضيح شيء ما؛ أرادت تجنب النقاش، قدمت جدتي دائماً الإجابة نفسها: 'كيف لي أن أعلم؟' كلما نطقت هذه العبارة، أشعر وكأنها تريد القول: 'معكِ حق، كانت لدي رغبة كبيرة في السفر؛ لكنني كنت دون عون، فما الذي كان بإمكاني فعله؟'

لقد تحملت هذه المرأة خلال حياتها قسوة لا يمكن تصورها؛ عندما كان أولادها أو المقربون منها يواجهون أي عقبة، كانت تبذل كل ما بوسعها لمساعدتهم للتغلب عليها. فإذاً لماذا عندما أتت مسألة هويتها الحقيقية، شعرت بالعجز إلى هذه الدرجة؟ لماذا لم تستطع

الدفاع عن هويتها والعائلة التي ولدت فيها؟ لماذا لم تستطع الدفاع عن حقوقها؟



هذه الصورة كانت مرفقة مع رسالة العائلة من تركيا إلى خورين في أميركا. في الأسفل، كلمات جدتي بخط يد جدي: 'إلى أخي خورين ...تذكار من العائلة ٥/٩/١٩٤٩. سهر'

بمرور الزمن، تبين لي بأن أمي وخالاتي كانوا على اطلاع

على بعض المعلومات العامة عن هذه القصة المؤلمة. لكن جدتي لم تخبرهن قط بالجرائم ضد الإنسانية التي شهدتها؛ كنتُ الوحيدة التي علمت بها؛الوحيدة التي شاركتني في التفاصيل التي كانت في معظمها مؤلمة ومؤثرة فيها. أعتقد بأنها لم تكن قادرة بعد على حملها والاحتفاظ بها لنفسها أكثر من ذلك.

لاحقاً، تحدثت مع أمي، فسألتها عن سبب قطع خالي التواصلات مع العائلة. روت أمي القصة كما سمعتها من خالي:

'حين قرر خالك، بعد مضي شهرين أو ثلاثة على وجوده هناك، المغادرة والرجوع إلى هنا، اقترحوا عليه البقاء هناك وإكمال دراسته. لكنه رفض، فغضب جده وقال له «إذا كان القصد من وراء مجيئك هو فقط الزيارة ومن ثم العودة، لماذا إذاً أزعجت نفسك وأتيتَ؟ نحن لم نرسل النقود لكي تأتي إلى هنا بغرض السياحة. بدل ذلك، كانت والدتك قد تمكنت من شراء بيت لها.» تسببت هذه الكلمات بغضب خالك وقرر قطع كل العلاقات. إذا كان ما قاله صحيحاً، فإن خالك كان على خطأ. حال عودته، قال«مجرد الانتهاء من تعليمي، وبمجرد التمكن مادياً، سوف أرجع لهم نقودهم.» لكنه فيما بعد نسي وعده. لقد ناشدناه، لكنه رفض إعطاءنا العنوان وقال بأنه فقده. لقد كان غاضباً عليهم. إذا تريدين سماع رأيي، أقول لك بأن خالك تصرف بأنانية مفرطة. لم يفكر في أمنا على الإطلاق.'

سألت أمي لماذا كانت جدتي قد أخفت الحقيقة عنا.

'نحن أيضاً يا ابنتي لم تخبرنا جدتك شيئاً عن ذلك. كل ما علمناه كان بسبب الأحداث وما سمعناه من الآخرين.' هذا كان ردها.

'أية أحداث؟'

'عندما كنا أطفالاً، كانت تقع أحياناً مشاجرات مع بعض أطفال الحي.حين يغضبون علينا، كانوا ينادوننا بـ«فروخ المهتدية». عندما كانوا يتلفظون بذلك، كانت جدتي تضطرب كثيراً. كلما سمعت ذلك، تضع الحجاب على رأسها وتذهب مباشرة إلى الجيران، تناقش، تسوغ؛ أحياناً تتكلم بلطف وأحياناً تفقد هدوءها؛ لكن بالنتيجة كان أطفال الحي يتوقفون عن مناداتنا بـ«فروخ المهتدية» عندما يغضبون علينا.'

'هل كانوا ينسون بأنكم مهتدون؟'

'لم يكونوا ينسون، لكنهم كانوا فقط يتوقفون عن استخدام الكلمة؛ ولم يعودوا يقولون شيئاً. أما نحن فلم نستخدم كلمة«مهتدي» البتة، ولم نكن نعرف ماذا تعني؛ هكذا اكتشفنا الحقيقة. كانت القصة المتداولة عن أمنا في البلدة بأنها أرمنية تركها أهلها هنا ورحلوا إلى أميركا. لكن كلما حاولنا الحديث عن ذلك ضمن العائلة، سرعان ما يتم إغلاق الموضوع بحيث ندرك عدم إمكانية الحديث عنه، هكذا لم نتحدث عنه قط.'

ثم كلمتني أمي عما حصل مع خالي عندما أراد الالتحاق بالمدرسة العسكرية:

'كان خالكِ حريصاً على إكمال دراسته، لكن جدك كان له رأي آخر: «لا أستطيع إعالة كل هؤلاء الناس وحدي. بماذا ستفيده الدراسة؟ لا أستطيع تحمل ذلك بأي شكل كان؛ دعه بدل ذلك يعمل ويكسب لنا بعض النقود.» لم يكن جدك يعمل بشكل دائم وكان علينا الكدّ من أجل لقمة العيش، لذا قرر خالك التسجيل في كلية عسكرية داخلية تقدم منحاً دراسية. جهّز كل وثائقه وقدمها، لكن رغم كونه من الطلاب المتوفقين، إلا أن إدارة الكلية رفضت قبوله.'

'لماذا؟'

'بسبب كلمة مسجلة في شهادة ميلاد جدتكِ: مهتدية.'

'ما معنى مهتدي؟'

'المهتدي هو الشخص الذي يدخل الإسلام لاحقاً، لقد أزعج هذا الموضوع أمي كثيراً لذلك بحثت عن حل فلجأت إلى المرحوم كاظم أفندي، والد زوج خالتك زهرة، الذي كان في ذلك الوقت يشغل منصب مدير دائرة الشؤون المدنية في مادين، فقام بتغيير شهادة ميلاد أمي. لم تطلب ذلك لمصلحة شخصية، بل أرادت ذلك من أجل حماية أولادها من الأذى.'

فقدنا خالي في سن مبكرة جداً؛ توفي عندما كان نائباً في البرلمان. رغم انتقاداته السطحية للدولة من وقت إلى آخر ، إلا أنه بقي طوال حياته ضمن الحدود التي رسمتها، ولم يخرج قط عن إيديولوجيتها

الرسمية؛ رغم أنها هي الدولة نفسها التي رفضت قبوله في الكلية العسكرية.

عندما سألت جدتي عن موضوع رفض الكلية العسكرية لخالي، لاحظت بأنها ماتزال متألمة. تنهدت وقالت، 'كانت درجاته الدراسية دائماً تامة. أنهى المدرسة بدرجة ممتازة، مع ذلك رفضوا قبوله في الكلية العسكرية. بعدها قام كاظم أفندي – الله يرحمه ويجعل مثواه الجنة – بتغيير شهادة ميلادي. هذا كل ما قالته. كانت ماتزال متألمة.

قمنا بدفن جدتي وغطيناها بالتراب البارد الندي وعدنا جميعاً إلى بيت خالتي. طوال اليوم كان الناس يتوافدون ويغادرون ؛ كانت غرف البيت حتى المطبخ والشرفات تمتلئ وتفرغ بشكل متكرر. مرة أخرى قام الجيران بإعداد الطعام وإحضاره إلى بيت خالتي، ووضعه على الطاولة، ودعوتنا للجلوس حولها. تجمعت النسوة العجائز معاً في غرفة واحدة لإقامة الصلاة وبأيديهن المسابح. عند الظهيرة بدأ الناس بالمغادرة فرادى ومثنى، وفي المساء تضاءل عددنا بحيث استطعنا التجمع في غرفة الجلوس و تحدثنا حتى وقت متأخر من الليل.

استدارت نحوي السيدة مدحية، أخت زوج الخالة زهرة، وقالت: 'هل تعلمين بأن حماتي كانت مثل جدتك.' ما قصدته هو أن حماتها أيضاً أرمنية كانت قد أُخذت من قبل عائلة مسلمة خلال الترحيلات القسرية . عندما لاحظتُ اهتمامي، أكملت:

'كان جد حاجي (حاجي هو اسم زوجها) في ذلك الزمان قد أخذ فتاتين وولداً من مسيرات الترحيل وقام بتربيتهم. كانت حماتي هي واحدة منهن. بعد سنوات، بعد أن تزوجت وكبر ابنها، زارهم

رجل وطلب مقابلة حماتي لكنهم لم يسمحوا له. حمل الرجل حينذاك الكثير من المال؛ هي حصة حماتي من الورثة ، كما قال، وأنه قدم من مكان بعيد لكي يعطيها إياه، لكن دون جدوى، حاجي لم يقبل أخذ النقود، وعاد الرجل من حيث أتى. أراد الرجل العودة مرة أخرى لكن تعاملهم معه أدخل الخوف في قلبه بحيث لم يتجرأ أي من أقارب حماتي على التواصل معها مرة ثانية.'

لم أستطع أن أتمالك نفسي، فقلت، 'برأيي، كان العم حاجي هوأكثر شخص خائف.' لم يصدر أي رد فعل مسموع، لكن الرؤوس اومأت بالموافقة. بعد ذلك، كل واحدة منا انشغلت بأفكارها. ثم خيّم صمتٌ طويل، بعدها ولكي لا يضيع الموضوع سألت:

'ألم تستطع حماتك أن تقول لابنها، «هذا ليس شأنك، هذا ميراثي، هذا حقي؟»'

فأجابت السيدة مدحية، 'لا، يا عزيزتي، بالطبع لم تستطع؛ لم تقل شيئاً، لم تستطع قول أي شيء.'

ثم تساءلت من جديد 'حسناً، لكن مرت سنوات عديدة، وهؤلاء النساء واجهن الموت ونجين، إذاً لماذا مازلن خائفات بهذا الشكل؟ ألم يشتقن إلى عائلاتهن، أم كن خائفات من القيام بذلك؟'.

كان جواب السيدة مدحية مألوفاً. فكرت قليلاً ومن ثم، لتظهرلي كما كانت عاجزة، أدارت كف يديها.

'و كيف لي أن أعلم؟'

لقد سهرنا طوال تلك الليلة ونحن نتحدث عن معاناة هؤلاء الناس الناتجة من العيش وسط الخوف والضغط . أخبرتنا السيدة مدحية كيف وقع أخوها الأكبر، واسمه حاجي أيضاً، في حب خالتي وصدى هذا الخبر في البيت.

'كنا جيراناً في مادين. عشنا في الشارع نفسه. كانت العائلتان قريبتين الواحدة من الأخرى. بعدها بفترة وجيزة، بدأ الناس يتكلمون عن علاقة أخي بخالتك. كان أبي يحمل الكثير من الاحترام والمودة لخالتك وكل عائلتك، إذ كان يردد«سوف نضم فتاتهم إلى عائلتنا، زهرة ستصبح كنتي،» لقد راقته الفكرة. لكن أمي وبقية العائلة كانوا رافضين.'

بينما هي تروي القصة ، نظرتُ إلى خالتي زهرة، التي تذرعت بشيء ما لكي تذهب إلى المطبخ. أثناء إكمال السيدة مدحية للقصة، كانت زهرة تدخل المطبخ وتخرج ؛ كانت تسمع نقاشنا لكنها لم تشاركنا.

'لقد عارضوا الزواج، بقولهم،«لا تلوثوا العرق، لا تفسدوا دمنا النقي.» حسب رأيهم، جدتك وزهرة، ليستا من عرق نقي. لكن أبي ثبت على موقفه وذهبوا ليطلبوا زهرة للزواج. هل تعرفون ماذا حصل بعد فترة؟'. دفعنا الفضول إلى الطلب منها أن تكمل. تابعت السيدة مدحية وهي تضحك:

'بعد ذلك بفترة ليست بالطويلة، تقدم حاجي، الذي أصبح

زوجي لاحقاً، بطلب الزواج بي. أمه كانت إحدى الأرمنيات اللواتي تمت أسلمتهن. وكما يقولون ، من يزرع الشر يحصده، هذا ما حصل مع أهلي إذ انتهى بهم الأمر إلى تزويج ابنتهم بعريس«دمه غير نقي» بعد أن كانوا قد رفضوا تزويج ابنتهم بعريس«دمها غير نقي». على أية حال،هناك أمر أود أن أخبرك إياه؛ من الصعب العثور في منطقتنا على أحد يخلو من«دم غير نقي» – ليس هناك أحد«دمه غير نقي».'

***

بعد سماع قصة جدتي، اضطرب تفكيري؛ كيف يمكنني العثور على أقاربها في أميركا؟ ما السبيل إلى مواجهة هذه الخدع، وإعلان الحقيقة على الملأ؟ لم أكن بعد قد وجدت أي طريقة، كنت ما أزال محطمة تحت ثقل ما قد اكتشفته في ١٢ أيلول ١٩٨٠، عندما وقع الانقلاب العسكري.

لقد قامت بعض الشخصيات البارزة من أصحاب الرتب العسكرية بتنفيذ عملية تطهير للبلد إلى درجة أنهم اختاروا هذه المرة التضحية بأبنائه. كان لديهم نهم مفرط لالتهام الضحايا، كانوا يرسلون الشباب أفواجاً أفواجاً إلى زنازين التعذيب- لكن حتى هذا لم يسد جشعهم.

لقد تسببت هذه العاصفة بضياع ودمار عشرات الآلاف من العائلات، ونحن من ضمنهم. تميزت تلك الفترة بالاعتقالات والمحاكمات والفرار والتخفي، وفي تلك الأيام توفي خالي، تلته أمي بعد فترة قصيرة؛ هكذا مرت السنون.

توفيت أمي، مثل خالي، في سن مبكرة نسبياً؛ كانت في الـ ٥٩ من العمر. كان ألم غيابها صعب التحمل . بسبب العاصفة التي أحدثها الانقلاب، كان قد مر وقت طويل دون أن أتمكن من لقائها؛ كان شوقي للقائها يفوق الوصف، فقد كنت أعد الأيام حتى أخرج وألقاها؛ ثم فجأة تلقيت نبأ وفاتها.

لاعتقادنا بأنها ربما لن تستطيع تحمّل فقدان ولدها الثاني، أخفينا عن جدتي نبأ وفاة أمي بعض الوقت. لكنها في النهاية علمت بالأمر، ورغم محاولتها التظاهر بالشجاعة، إلا أنها لم تغادر سجادة الصلاة عدة أيام. لازمت الصلاة على الدوام ، تركع عل السجادة وتبكي، تتوسل إلى الخالق أن يرحمها ويأخذها أيضاً. لقد حدث ذلك في أثناء معاناتها ألماً شديداً سببه مرض الهربس النطاقي، الأمر الذي كان له انعكاس على كامل ظهرها وبطنها؛ لم تستطع التخلص من هذا الألم المبرح فترة من الزمن.

خلال السنة التي بدأت فيها «عاصفة أيلول» التي ضربتني شخصياً، بالانحسار، التقيت عائشة التي كانت تعمل في أميركا، حيث عاشت هناك سنوات. سرعان ما أصبحنا أصدقاء. أخبرتها عن قصة جدتي فتأثرت بها جداً.

عندما كانت تستمع لاحظتُ كيف امتلأت عيناها بالدموع، وكيف أنها كانت تجهد نفسها لتجنب البكاء. لاعتقادي بأنني أستطيع الوثوق بها، طلبت منها المساعدة. وافقت عائشة دون تردد وطلبت

مني تزويدها بكل المعلومات التي أملكها. أعطيتها الأسماء؛ عادت إلى أميركا.

بدأت أترقب مكالمة من عائشة بعد يوم من مغادرتها، رغم معرفتي بأن ما تعهدت به هو أمر صعب، إلا أن صبري مع مرور الأيام بدأ ينفد. لكن لم يمض وقت طويل حتى اتصلت عائشة. كانت منفعلة إذ كانت بالكاد تستطيع التنفس؛ استمرصوتها بالتهدج، كما لو أن حلقها مسدود، ثم استرجعت ذاتها.

فهمت منها أنها بعد عودتها إلى أميركا، كانت قد بدأت بحثها عن عائلة غاداريان باستخدام أبسط وأكثر الأساليب المعروفة، تمكنتْ من اقتفاء أثر أناس تربطهم صلة قرابة بعيدة بالعائلة.

'بعد تتبع بضعة مؤشرات لم توصلني إلى أي نتيجة، قررتُ تجريب طريقة أسهل. تناولت دليل هواتف مدينة نيويورك واتصلت بأول رقم مدرج تحت اسم غاداريان. تبين بأن هذا الشخص هو من الجيل الجديد، ولد وترعرع في أميركا. لكنه تذكّر بأنه سمع بقصة هيرانوش عندما كان طفلاً. لم يتعرف إلى أي من الأسماء التي ذكرتها له. لكنه وعد بالبحث ومعاودة التواصل.'

بالكاد استطعت تصديق أذني. لقد عثرنا على عائلة جدتي. أردت زيارة جدتي في الحال لأخبرها بما قالت عائشة، لكنني قررت أن لا أفعل والانتظار إلى حين سماع المزيد من عائشة. كانت جدتي في أنقرة في ذلك الوقت مقيمة عند هاندان.

بعد فترة قصيرة، اتصلت عائشة من جديد. كان صوتها يرتجف. كانت قد تحدثت هاتفياً عدة مرات مع فيرجينيا، ابنة خورين:

'هل تذكرين اليوم التي تحدثنا فيه في إسطنبول عن هيرانوش، في ذلك اليوم أصيب خورين بجلطة. ولأنه كان وحيداً في البيت، لم يتمكنوا من معالجته مباشرة. وهو يرقد حتى الآن في المشفى. مازال دماغه في حالة جيدة؛ أخبروه بأن أخته حاولت التواصل معه، فبكى. يا لسوء الحظ، أليس كذلك؟'

'معك حق ، عائشة، وهو أمركاف لجعل الإنسان يؤمن بالقدر.'

'وقبل أن أنسى، ثمة شيء آخر. لقد سمى خورين أحد بناته بـ"هيرانوش".'

ذهبت إلى أنقرة. أخبرتُ جدتي بتواصلات عائشة مع فيرجينيا، ابنة خورين. بكثير من التردد وبعد أن ذكرت لها كل شيء، أخبرتها بأن خورين قد أصيب بجلطة وأنه في حالة العلاج في المشفى.

استمعتْ إلي باهتمام وهدوء وبدون مقاطعة؛ لكن وجنتيها الحمراوين هما الوحيدتان اللتان خانتا مشاعرها. عندما علمت بأن أخاها يرقد في المشفى، كان سؤالها الأول هو الاطمئنان إلى حالته الصحية. لا أحبذ الكذب لكنني فجأة وجدت نفسي مضطرة إليه:

'خالي خورين يتعافى بشكل جيد، إنه يستجيب للمعالجة. الأطباء متفائلون.'

بعد بضع دمدمات لطيفة للغاية بحيث لم أتمكن من سماعها، قالت:

'حالة عيني الصحية ليست على ما يرام ـ لا أستطيع السفر، لكن أخبريه، بمجرد خروجه من المشفى، أن يستقل أول طائرة ويأتي، لأنني مشتاقة إليه كثيراً.'

لم أكن أدري بماذا أرد. لعنت نفسي في داخلي وأردت تغيير الموضوع مباشرة، قلت:

'جدتي، هل تعلمين بأن خورين قد سمى أحد بناته باسمك.'

'كيف لي أن أعلم؟'

'لقد سماها هيرانوش؛ جدتي لقد سماها على اسمك.'

بمجرد سماعها ذلك بدأ وجهها يشع نوراً وارتسمت عليه ابتسامة. وقالت 'إذاً، لم ينسوني.'

وهي تتلفظ بهذه الكلمات كانت متأثرة جداً بحيث كان صوتها في البداية ضعيفاً جداً، بعد قليل وبصعوبة عاد من جديد.

لم تسأل عن شيء آخر، إنما حاولت جاهدة إخفاء أحاسيسها، لكن للمرة الأولى في حياتي أراها تدندن أغنية؛ كانت جدتي تغني؛ لم أستطع التعرّف لا إلى الكلمات ولا الإيقاع، فالدندنات بقيت داخل فمها.

عند المساء انضم إلينا خالوق. شكلنا، مع أولاد أختي، جلسة مرح صاخبة. في ذلك اليوم وفي تلك الليلة كانت جدتي تمازحنا وتطلق النكات وتمرح كالأطفال. لقد فوجئنا بهذه السعادة: لم نكن معتادين رؤية جدتي على هذه الشاكلة.

كانت، كلما رن التلفون في ذلك اليوم والذي تلاه، تقفز من مكانها وتهرع باتجاهه، بطريقة تؤكد وصف جدي لها بـ"الجاويش سهر" وتسمية أمي لها بـ"السيدة العاصفة".

لكن حتى عند وصولها قبل أي شخص آخر، كانت تنتظر أن يأتي أحدنا ويرد، وثم تستمع بشوق إلى المحادثة لمعرفة المتحدث على الطرف الثاني وتستنبط الأحوال هناك. لقد لاحظ هاندان وخالوق أيضاً هذا التغيّر عليها.

مع كل رنة تلفون، كانت تقفز من كرسيها وتحط قبالة التلفون قبل أن يتمكن أحد آخر من التقاطه. أعتقد بأنها كانت تترقب مكالمة من أميركا.

لم تأت تلك المكالمة التليفونية التي ظلت جدتي تنتظرها. كان الخال خورين قد توفي في المشفى. ولسبب غير معروف توقفت بناته عن التواصل مع عائشة. رغم توسلاتنا، لم يتصلن بجدتي؛ بدلاً من ذلك قطعوا كل التواصلات.

لم أدرِ ماذا أخبر جدتي. في الحقيقة، هي لم تسألني عن أي شيء قط، لم تتلفظ بأي كلمة، لكن كلما التقينا، كانت تنظر إلى وجهي بطريقة جعلتني أحس وكأن دموعي تنفجر وتتوسل وتتضرع لها لكي تسامحني. مرة أخرى كنت قد تأخرتُ، وأنا أتحمل هذا التأخيروبسبب شعورالذنب هذا لم أكن أستطيع ملاقاة نظرات جدتي.

بعد تفكير مطول رأيتُ بأنه من الأفضل لها أن تعرف الحقيقة لكي لا تعيش على أمل مزيف؛ فأخبرتها بوفاة الخال خورين وبتوقف بناته

عن التواصل معنا، استمعت بكل هدوء دون التلفظ بأي كلمة، لكنني من يومها لم أسمعها أو أراها تدندن أي أغنية مرة أخرى.

بعد محاولة التواصل الأخيرة هذه، لم تتحدث جدتي مرة أخرى عن الموضوع البتة: لم يعد هناك شيء يقال. لقد فقدت آخر شخص تعرفه من العائلة. لم تتحدث عن البقية. تم إغلاق الموضوع.

لكن في كل لقاء، كانت تأخذ يدي بين يديها، وتتحدث مطولاً عن الماضي. كلما تذكرت تفاصيل جديدة كانت تسرع إلى نقلها إلي حالما تلتقيني. عادة ما كانت تنسى ما قد روته لي، وتكرر القصص نفسها مرات عديدة.

على الرغم من قدرتها على تذكّر أشياء مضى على وقوعها زمن طويل – حتى أصغر التفاصيل – إلا أن ذاكرتها القصيرة كانت تخونها دائماً.

في أحد الأيام بعد أن أخبرتني بحدث مؤلم وقع لها في طفولتها، سألتها بخوف:

'لكن ياجدتي، هل تتوافق تلك الأفعال التي قام به هؤلاء الناس مع تعاليم الإسلام؟' كان سبب خوفي هو عدم ذكرها لأي علاقة للدين بالأحداث والمآسي التي كانت ترويها لي. لم تقدم أي تفسير أو تحليل بل تابعت التضرع إلى الخالق مثل أغلب المسلمين الورعين.

وقالت دون تردد:

'ما قاموا به لا يتوافق لا مع الإسلام ولا مع أي دين آخر.' ومن ثم كررت عبارتها المشهورة التي كانت ترددها عند نهاية كل قصة مؤلمة.

'ليت تلك الأيام تختفي ولا تعود أبداً.'

توقفتْ عن الكلام، فكرتُ، ومن ثم أخبرتني بما سمعته من ناريمان هانم، جارة هاندان. مرة أخرى قامت، تجنباً لإعطاء أي تفسير، بنقل تفاسير ورؤى الآخرين. كانت ناريمان هانم وكل عائلتها مولعين جداً بجدتي. ناريمان وأمها مؤمنتان، تصليان خمس مرات في اليوم. كانت العائلة بأكملها تعيش في منطقة إرزينجان (Erzincan) التي ضربها زلزال[1].

في إحدى المرات أخبرت ناريمان هانم جدتي:

'في إرزينجان كان يعيش الكثير من الأرمن. أثناء السوقيات في زمن المذابح قالت النساء الأرمنيات للمسلمين: «هذه الأراضي لن تغفر لكم ! لن تستطيعوا الحفاظ عليها، لن تعرفوا السلام في هذه البلاد!»'

'مرت السنون وجاء ذلك اليوم الذي تعرضت فيه مدينة إرزينجان للزلزال. بحيث لم يبق حجرٌ على حجر. مات الآلاف. هكذا التفت المسلمون بعضهم إلى بعض وقالوا،«لعنة الأرمن تحققت.»

---

(١) كانت قوة زلزال إرزينجان ٧,٨ على مقياس ريختر، وأودت بحياة حوالى ٢٣٠٠٠ إنسان.

بينما كانت أولغان، ابنة هاندان الكبيرة والتي أحبها كثيراً وأناديها 'كيتي'، تنهي دراستها في المعهد العالي، وقعت في حب شاب. لم تكن هاندان ضد هذه العلاقة، لكن موافقتهاعلى الزواج كانت مشروطة بإنهاء الدراسة من الجامعة.

لكن عريس المستقبل فاز برضا جدتي؛ فقد حظي الارتباط بموافقة جدتي. وحاولتْ إقناع هاندان بأن الزواج يجب أن يتم دون تأخير. ولم يكن يمر يوم دون أن تجد مبرراً للتذكير به والسؤال فيما إذا كان قد تحدد موعد الزفاف. في النهاية وضّحت نياتها:

'أود أن أصبح تورون تاهت (Toruntaht) قبل أن أموت.'

أن يصبح المرء تورون تاهت يعني أن يتمكن من رؤية أحفاد أحفاده؛ وفقاً للاعتقاد السائد، كل من يعمّر طويلاً ويضم أحفاد أحفاده بين ذراعيه يذهب إلى الجنة مباشرة. في اللحظة التي يقوم بها بضم الطفل بين ذراعيه، يتطهر المرء من كل الذنوب. أن تصبح تورون تاهت هو بركة مميزة يهبها الله فقط لعباده المفضلين.

كانت جدتي ترغب في زواج ابنة حفيدتها بأسرع وقت لكي

تصبح عن طريقها تورون تاهت، وبالتالي تُفتح لها أبواب الجنة. هكذا تزوجت أولغان قبل إنهاء دراستها الجامعية.

لقد أرادت جدتي، رغم ضعفها وكبرسنها، حضور حفلة الزفاف، فوصلت بمعنويات ممتازة؛ كضيفة شرف، وتم تخصيص أفضل مكان لها، وحضرت المراسيم من البداية حتى النهاية باهتمام وسعادة لا توصف. في اللحظة التي أخلت الفرقة الموسيقية مكانها لنا، نحن أحفادها؛ بدأنا نعزف ونغني. كانت جدتي فرحة جداً. عندما أعطوا الميكروفون لـ خالوق، بدأنا جميعاً نصفق ونهتف: 'خالوق! خالوق!'

رغم ما لخالوق من صوت استثنائي وأذن موسيقية رائعة، إلا أنه كان يكبحها؛ لم يكن من السهولة إقناعه بالغناء. كلما كانت لدينا حفلة وأجواء الفرح مؤاتية، كنا نتوسل إليه لكي يغني. عندما سمعتْ جدتي اسم خالوق، بدأت بالتصفيق وقالت، 'رجاء، أتوسل إليك، أتوسل إليك!' عندما رأى خالوق جدتي تصفق أخذ الميكروفون ولم يعد بحاجة إلى من يحرضه. عندما غنّى، انتعشت جدتي فرحاً بحيث أقدمت على شيء لم تفعله من قبل البتة – طلبت من خالوق أن يغني لها أغنية عنوانها 'ديرسيم':

ديرسيم بين أربعة جبال
وردتي في كأس زجاجي
الله يحمي ديرسيم
فيها حبيبتي موجودة

ماذا جرى لحبيبتي
لماذا تُركت تذبل
على أثر رحيلها
تحولت هذه الأرض إلى خراب

ديرسيم تحتها فارغ
إلى هاربوت ذهاباً وإياباً
لا شيء أجمل من أن تكون يدك في يدي
حتى لو نستجدي من باب إلى باب

آه العون العون العون
ما المعيب في قول ذلك
لتكن يدك في يدي.
ولا يهم إن استغرق الطريق ثلاثة أشهر

أثناء الاستماع إلى الأغنية كانت جدتي تتمايل على الجنبين، مندمجة مع اللحن تحرك يدها وهي تستمتع بالأغنية. عندما انتهى، دعت خالوق إلى جانبها وطبعت قبلتين على كل وجنة.

بعد حفلة الزواج، لم يدم انتظارها كثيراً؛ جدتي أصبحت تورون تاهت. تناولت حفيد هاندان بين ذراعيها، وحضنت الطفل ايغه ونحن نلتقط الصور. لقد كانت في غاية السعادة.

كانت جدتي قد أصبحت مسنة جداً، لذلك أقامت فترة طويلة عند خالتي سباهات في إلازيه. خلال تلك الفترة لم أتمكن من زيارتها، لكن عندما سمعت أنها قادمة للإقامة عند خالتي زهرة، أسرعت إلى المطار لملاقاتها. كما أتى لاستقبالها كل أحفادها الموجودين في إسطنبول، بالإضافة إلى أولاد خالتي زهرة: إيرجان، إيرسان، إيمراه، وزوجاتهم وأولادهم. عندما أنزلوها من الطائرة على كرسي متحرك، بدت متعبة، منهكة.

لم يحصل أي جدل حول السيارة التي ستنقلها؛ فكل شيء يتم وفق رغبة جدتي. إذ إنها معجبة بطريقة قيادة إيمراه، لذلك وضعناها في سيارته، وصعدت بناتها معها. والباقون استقلوا سيارات أخرى. حين وصلنا، حملها إيمراه بين ذراعيه وصعد بها درج الشقة؛ كانت شبه نائمة. لو كانت مستيقظة، لاستدارت إلى إيمراه وقالت له، 'بني، أتوسل إليك. أنت تؤذي ظهرك.' لكنها بدلاً من ذلك فتحت فمها عدة مرات كالطيور، ولم تقوَ على الكلام.

وضعناها في السرير، بانتظار استيقاظها لكي نقبل يدها. بعد برهة استيقظت فذهبنا إليها الواحد تلو الآخر، نقبل يدها ونعرّفها بأنفسنا. في المقابل هي أيضاً قبّلت كل من قبّل يدها ولكنها لم تتذكر أحداً منا. جهودنا لمساعدتها في التعرّف إلينا كانت دون جدوى.

بعد لحظات تعرفت إلى إيمراه وسألت عن ابنه آيدين. الأمر الذي شجع أغلبنا على العودة والمحاولة مرة ثانية؛ لكن كانت ما تزال لا تستطيع التعرف إلينا.



حفلة زواج ابنة خالتي: جدتي تضع اسوارة في معصم الفتاة التي كانت السبب في أن تصبح تورون ناهت.

ثم ذهبتُ إلى جانبها. كالعادة، أخذت يديها بين يدي وقلت: 'جدتي.' فردت أيضاً كالعادة 'جدتي'، ثم انحنت خالتي سباهات، التي كانت تجلس بجانبها، وهمست في أذنها: 'انظري يا أمي، انظري من أتى!' كان رد جدتي مختصراً وواضحاً:

'أعرفها من صوتها...'

عضضتُ على شفتي من أجل كتم بكائي وطمرتُ رأسي بين يديها وقبلتهما وهي أيضاً قبلتني. سألتني وهي تمسك بيدي، عن أموري وكيف هي أحوال العمل، ثم قالت: 'ما هي أخبار كولجين؟'

لم تكن كولجين من أقاربنا؛ كانت صديقتي. نظر الموجودون

في الغرفة بعضهم إلى بعض بدهشة. إذ إنها استطاعت تذكر شخص لم تقابله منذ فترة طويلة بينما فشلت ذاكرتها المسنة في التعرّف إلى أولادها وأحفادها.

بعد سماعها بأن كولجين بخير، طرحت السؤال الذي جعل العائلة تنفجر بضحكة ممزوجة بالدهشة:

'كيف هو كلبها، مازال على قيد الحياة؟'

ثم استفسرت عن أحوالي الشخصية. لكنها بعد حصولها على جواب كل سؤال، كانت تحتاج إلى بعض الوقت لطرح السؤال التالي. أعتقد أنها كانت تعاني اضطراباً وهي تحاول لملمة أفكارها. بعد قليل، أحست بالحاجة إلى وضع رأسها على الوسادة والاستلقاء لكي تستريح.

عدتُ في اليوم الثاني لأرى جدتي، وحاولت جهدي أن أقوم بذلك كلما سنحت لي الفرصة. في كل مرة أزورها كنت ألحظ تدهور حالتها؛ كانت تستيقظ فقط لتناول الطعام واستخدام المرحاض، هكذا وصفت خالتي حالتها.

عندما سمعتني أقول، 'جدتي' كانت لا تزال تعدل جلستها وتقول، 'جدتي'؛ أمسكتْ يدي، لكنها لم تكن تستطيع التحدث؛ كانت تتعب بسرعة، وتحس بحاجة إلى الاستلقاء. في آخر مرة رأيتها، كانت في الفراش ذهبت إلى جانبها وقلت، 'جدتي.'' رفعت رأسها مرة واحدة وأخذت يدي، لكنها لم تستطع التكلم، حتى كلمة 'جدتي'

لم تستطع لفظها، لم تتمكن حتى المحافظة على وضعية رأسها؛ كانت تمسك بيدي لكن بمجرد سقوط رأسها من جديد على الوسادة، لم تستطع رفعها مرة أخرى.

بعدها لم نتحدث جدتي وأنا مرة أخرى. لم يعد بإمكانها إخباري أي شيء عن قريتها أو طفولتها أو عمها اللطيف الذي عمل مدرساً في كيغي (Kiğı) أو جدها أو أمها. لم تعد تأخذ يدي بين يديها وتغوص في أحلامها. لم تعد تستطيع رفع وجهه إلى الأعلى وتثبيت نظرها على نقطة في السقف والتساؤل: 'في فناء بيتنا ذاك، ثمة شيء مستدير. أتساءل ما هو؟ '، فبقيت أسئلتها دون أجوبة.

* * *

أرسلت نعوة وفاتها إلى جريدة آغوس (Agos)[1]:

اسمها هيرانوش. حفيدة هيرابيت غاداريان، الابنة الوحيدة لإسكوهي وهوفانيس غاداريان.

أمضت طفولة سعيدة في قرية هاباب، بالقرب من بالو حتى الصف الرابع الابتدائي.

ثم فجأة، شهدت أوقاتاً مؤلمة كانت تقول في وصفها 'أيام عساها قد ولت إلى غير رجعة'.

فقدت هيرانوش كامل عائلتها ولم ترهم بعدئذ قط. كانت قد أُعطيت اسماً جديداً، للعيش مع عائلة جديدة.

نسيت دينها ولغتها الأم، ومع ذلك لم تشتك ذلك البتة، لم تنس قط اسمها، قريتها، أمها، أباها، جدها أو أقاربها المقربين.

(١) جريدة أسبوعية تركية – أرمنية كان يرأس تحريرها هرانت دينك حتى تاريخ اغتياله في كانون الثاني ٢٠٠٧.

ملاحظة الكاتبة: الأسماء التي ذكرتها كانت وفقاً لرغبة جدتي.

عاشت حتى سن الـ ٩٥، متأملة دائماً ذلك اليوم الذي ربما تتمكن فيه من رؤيتهم وعناقهم مرة أخرى.

ربما كان هذا الأمل هو الذي جعلها تبقى على قيد الحياة حتى هذه السن؛ ظلت سليمة العقل حتى آخر أيامها.

الأسبوع الماضي، فقدنا هيرانوش، جدتنا، وودعناها إلى مكان راحتها الأبدية.

نأمل أن يصل هذا الإعلان إلى الأقارب (أقاربنا) الذين لم نستطع العثور عليهم عندما كانت على قيد الحياة، الذين ربما يشاركوننا في حزننا، على أمل 'أن تكون تلك الأيام قد ولت إلى غير رجعة.'

إذا حدث ووجدت في إسطنبول وكنت مارة بمنطقة كادي كواي (Kadiköy) ولم أكن في عجلة من أمري، فلا بد لي من زيارة مكتبة حسن، الذي ترعرع مثلي في مادين. كان كبار العائلتين قد تعارفوا وبنوا علاقة جيدة فيما بينهم. حسن وأنا تقابلنا في إسطنبول وسرعان ما أصبحنا صديقين. بعد وفاة جدتي، ذهبت لكي أراه؛ كالعادة، دعاني إلى فنجان قهوة بدون سُكر. أخبرته بوفاة جدتي، فحزن وقدم تعازيه. سرعان ما تعمقنا في الحديث، كالعادة.

أثناء الحديث، قال: 'هل تعلمين بأنني عندما كنتُ صغيراً أتيت مرةً برفقة جدتي إلى بيتكم. كانت جدتك قد أعدت الـ چوريك (çörek)[1]. مكثنا قليلًا، وبعد أن تناولنا الچوريك، ذهبنا لزيارة خالتي سهر، زوجة شاشو إبراهيم، وخالتي تاديملي. ما لفت انتباهي هو أن كل بيت قمنا بزيارته في ذلك اليوم، كان يُقدم إلينا الچوريك نفسه. وكان كل الچوريك في بقية البيوت، كما في بيتكم، خبزاً مظفوراً حلو

(١) خبز مظفور حلو المذاق.

المذاق، ومزيناً بالبيض ومسحوق الكرز المجفف وبذور الشمر، تماماً كالذي عندكم.

طبعاً تمنيتُ أن تكون الضيافات مختلفة، لكن ظني خاب عندما قُدم لنا في كل مرة الچوريك نفسه، مع ذلك أكلت جدتي شطيرة من الچوريك في كل بيت قمنا بزيارته وشربت كأساً من الشاي. بعد سنوات فقط أدركتُ ما هو القاسم المشترك بين تلك البيوت التي قمنا بزيارتها؛ خالة سهر، زوجة شاشو إبراهيم، كانت أرمنية؛ خالة تاديملي كان قد تم أسلمتها، كجدتك.'

أدهشتني هذه المعلومة، فسألت حسن في ما إذا كان مازال يتذكر تاريخ تلك الزيارات، لكنه لم يستطع تذكرها بدقة. بدلاً من ذلك روى بدقة تفاصيل الزيارات بحد ذاتها، واستطاع بعد سنوات اكتشاف الشيء المشترك بين تلك البيوت التي تناول فيها الچوريك. نعم، لقد كانت جدتي تحب أن تصنع لنا الخبزالمظفور ذا المذاق الحلو والمزين بالبيض ومسحوق الكرز المجفف وبذور الشمر، وكانت تقدمها إلى زوارها، لكن في الحقيقة لم تكن لدي أي فكرة عن وجود ربات منازل في مادين ذوات ماضٍ متماثل يقمن بإعداد الـ(چوريك) ويقدمنها للزوار.

بقيت أفكر في الأمر وتذكرت تشابه الچوريك الذي كان يقدمه جيراننا الأرمن، آزنيف هانم و يلدز هانم ، لضيوفهم في عيد الفصح.

بعد أن تشاركنا ما نعرفه ونتذكره، غلبتنا العواطف؛ تجمدت الدموع في أعيننا. ربما استطاعت أولئك النسوة إخفاء هذه الأشياء عن أولادهن وأحفادهن، لكن حافظن على تقاليدهن في السر؛ لم ينسين أعيادهن، وكن يزرن جيرانهن ويحتفلن معاً. لقد دام الحال على هذا المنوال حتى تمكنت فقط اليوم من إدراكه.

خلال زيارة لاحقة، أخبرني حسن بأن الناس يشيرون إلى جدتي وأمثالها بـ'بقايا السيف'. فعندما يرد اسم أحد هؤلاء، يقولون، 'هذا أيضاً واحد من بقايا السيف.'

عند سماع هذا الكلام شعرت بدمي يتجمد. صحيح أنني كنت قد سمعت هذا المصطلح، لكن سماعه مستُخدماً في وصف جدتي وأمثالها، قد جرحني؛ إن التفاؤل الذي أفرزته ذكرياتنا عن الچوريك حل محله التشاؤم.

* * *

كانت قد مرت شهورعدة قبل أن يتصل بي هرانت دينك من جريدة أغوس: 'هل تستطيعين المجيء إلى المكتب؟ أقاربكِ من أميركا قد اتصلوا بي.'

عندما اتصل هرانت كنت وقتئذ في الشارع والسماء تمطر. لا تسعفني ذاكرتي في تذكّر الحديث الذي دار خلال المكالمة، ولا حتى كيف انتهت؛ فقط وقفت مذهولة هناك في الشارع.

يبدو أن نعوة الوفاة، التي أرسلتها إلى جريدة آغوس، تمت إعادة نشرها مرفقة بتعليق ناقد على شكل خبر في جريدة هراج (Haraç) الصادرة في فرنسا. كان هذا الخبر قد شدّ انتباه المطران ميسروب آشجيان، الذي هو نفسه من قرية هاباب، فقرر الاتصال بأناس تربطهم قرابة بعيدة مع عائلة غاداريان وعن طريقهم وصل إلى مارغاريت، أخت جدتي – التي ولدت في أميركا والتي لم تسمح الظروف لجدتي لرؤيتها البتّة.

كان ريتشارد بيدروسيان – ابن مارغاريت، أخت جدتي– هو من اتصل بجريدة آغوس. بدأتُ بتبادل الرسائل مع مارغاريت وريتشارد.

في إحدى رسائلها أخبرتني مارغاريت (الخالة مارغي) بالظروف التي واجهتها إسكوهي (والدتها ووالدة جدتي)؛ بعد كان قد تم انتزاع ابنتها من يدها وترحيلها. من خلالها علمت بأن امرأتين فقط من تلك العائلة الكبيرة قد نجتا من سوقيات الموت، وبأنهما عندما وصلتا إلى حلب كانتا قد شارفتا الموت من شدة الجوع. هاتان السيدتان كانتا إسكوهي؛ وأختها ديروهي. كل البقية – الجدات والأحفاد والبنات والكنائن اللواتي كنا معهن في المسير– فقدن حياتهن خلال رحلة الموت، وتُركت أجسادهن على جانب الطريق.

كما كتبت لي مارغاريت بأنه عندما توفي أبوها في ١٩٦٥، وجدوا ورقة مطوية في محفظته. كانت الورقة التي احتفظ بها عشرات السنين هي رسالة ابنته هيرانوش. احتفظتْ بها مارغاريت وأرسلت لي نسخة منها. وأنا بدوري وجهتُ دعوة إلى كل أفراد عائلتنا في أميركا وتركيا للذهاب معاً لزيارة ضريح جدتنا هيرانوش.

* * *

كبر الطفل إيغه، الذي بمجيئه إلى الدنيا أصبحت جدتي تورون تاهت، دون أن يتمكن من رؤيتها.

في أحد الأيام، بينما كانت جدته هاندان تروي قصة الأخت بيزيز لكي يخلد إلى النوم، وأخبرته بأن مصدر هذه القصة هو جدتها.

على الرغم من أن الطفل إيغه وجدته هاندان لم يلتقيا بعدئذ قرابة

العام لكونها كانت تعيش في مدينة أخرى، إلا أنه عندما التقيا، طلب منها أن تروي له قصة.

'أي قصة تحب؟ ماذا عليّ أن أروي لك؟' سألت جدته.

بصوت واضح، أجاب الطفل إيغه:

'جدتي، هل لك أن تروي لي قصة الأخت بيزيز؟'

في عام ١٩١٠، كان هوفانيس قد سافر، متتبعاً خطى أخويها الكبيرين بوغوص وستيبان، إلى بريمين (Bremen)، حيث استقل منها الباخرة إلى أميركا. لكن لم يُسمح له بالدخول إليها. بعد هذه المحاولة الفاشلة، كرر المحاولة عن طريق كندا؛ فحالفه النجاح . هناك عمل معهما في السوبر ماركت الذي كانا قد افتتحاه في نيويورك.

لاحقاً، افتتح هوفانيس سوبرماركت خاصاً به في الشارع العاشر (Tenth Avenue). واشتغل ليلاً نهاراً من أجل توفير أكبر كمية من المال. بعد فترة ليست بالطويلة، وصلته أنباء مفزعة. فقد سمع بأنه في البلاد التي غادرها لم يبق هناك أي أرمني، وبأن أعداداً قليلة جداً من الأرمن الذين تم تهجيرهم من القرى قد نجوا من مسيرات الموت ووصلوا إلى حلب وديرالزور[1]، وأن أعداداً كبيرة من الأرمن قد قُتلوا- نساءً وأطفالاً، شباباً وشيباً - وأن هناك الآن حملات لمساعدة الناجين الذين هم على حافة الموت نتيجة الجوع وغياب العناية الصحية. عند

---

(١) مدينة تقع في شرق سوريا على نهر الفرات. بالقرب منها هناك تذكار للضحايا الأرمن.

سماع ذلك فقد الأخوة صوابهم وأصبحوا كالمجانين. طرقوا كل الأبواب لكنهم لم يحصلوا على أية أخبار عن عائلاتهم. بعد فترة من الزمن، بدأت منظمة الصليب الأحمر بنشر قوائم بأسماء الناجين. فبدأوا بالتردد إلى هذه المنظمة، وفي إحدى المرات اكتشف هوفانيس أن زوجته على قيد الحياة وتعيش في سوريا. لكنه لم يتمكن من الالتقاء بزوجته إسكوهي من جديد قبل عام ١٩٢٠ حيث تعانقا حينذاك وبكيا بحرقةٍ حزناً وألماً على أطفالهما وكل أحبائهما الذين فقدوهم.

في عام ١٩٢٨، عندما اكتشف هوفانيس أن ولديه، هيرانوش وخورين، مازالا على قيد الحياة، سافرعلى الفور إلى حلب ودفع مبالغ طائلة إلى مهربين يعملون على الحدود، طالباً منهم العثورعلى ولديه وإحضارهما إليه. مرت أيام وشهور وهو يترقب الطريق الذي سلكوه. في النهاية، تم العثور على خورين. وعندما احضروه إليه ، كان أول شيء قام به هوفانيس هو الطلب من خورين نزع قميصه. حين رأى آثار حروق على صدره و كتفه اليسرى، عانق هوفانيس ولده بحرارة وبكى مطولاً.

في أميركا رُزقَ إسكوهي وهوفانيس طفلين، ولداً وبنتاً، هارولد ومارغاريت.

عندما بلغت مارغاريت سن الدراسة، أُرسلت إلى مدرسة أرمنية في أيام العطلة الأسبوعية لكي تتمكن من تعلم اللغة. في نهاية اليوم الأول، عادت إلى البيت وهي تركض، وبدأت تغني أغنية أرمنية تعلمتها

توآً في المدرسة. متوقعةً أن أمها ستكون سعيدة بذلك، لكن مارغاريت أصيبت بالصدمة حين رأت أمها تبكي. توقفت عن الغناء حين رأت أمها تقع على الأرض و تنتحب. عندما أدركت الأم أن حالتها هذه أدخلت الرعب في قلب ابنتها الصغيرة، حاولت تهدئتها، فشرحت لها سبب بكائها؛ الأغنية التي تعلمتها مارغاريت في المدرسة في ذلك اليوم هي نفسها أغنية هيرانوش المفضلة، التي كانت تغنيها كثيراً.

عندما توفي هوفانيس في عام ١٩٦٥ وهو في السادسة والثمانين من العمر، وجدت مارغاريت في محفظته، في الجانب الأيسر من سترته، ورقة قديمة مطوية أربع طيات. حرصاً منها على عدم تمزّق الورقة، فتحتها بعناية: كانت رسالة مكتوبة بالأرمنية؛ على كلا وجهي الورقة. إحداها بخط هيرانوش والأخرى بخط مريم. كانت الورقة شبه متفتتة لذا وضعتها مارغاريت بعيداً في مكان آمن.

كانت مارغاريت تعاني مشاكل في عينيها. في أحد الأيام، عندما كانت تستعد للذهاب إلى المشفى للخضوع لعملية في عينها، تلقت اتصالاً من المطران ميسروب آشجيان. الذي كان قد قرأ نعوة هيرانوش في جريدة آغوس. وهي بدورها اتصلت مباشرة بأولادها: ريتشارد، نانسي، ديبرا، من أجل البحث عن الحفيدة التي نشرت إعلان الوفاة.

هكذا بدأ تواصلنا، وبدأت المراسلات وتبادل الصور؛ كانت عائشة هي التي تقوم بالترجمة. وقامت مارغاريت مع أبنائها وكنائنها

وأحفادها بزيارة الكنيسة للصلاة على روح زوجها وأبيها وأمها وهيرانوش أيضاً. كما طلبت نانسي، ابنة أخت هيرانوش، أن يتم زرع ١٠ أشجار في أرمينيا تخليداً لذكرى خالتها.

كانت مارغاريت، كأختها الكبرى التي لم تتمكن من رؤيتها البتة، تتلقى المعالجة الطبية نفسها لعينها. كانت العملية غير ناجحة، رغم الجراحة الإضافية، ساء وضعها،واشتد عليها الربو أيضاً. فلم يسمح لها الأطباء لكونها في الثمانين من عمرها بالقيام برحلة طويلة لكي تزور قبر أختها. 'يبدو أنني لن أتمكن أبداً من زيارة قبر هيرانوش،' هذا ما قالته لأولادها. 'وسوف أموت قبل رؤية فتحية.' لذلك قرر كل من ريتشارد و نانسي وديبرا مفاجأتها في عيد ميلادها الثمانين.

عندما اتصلت بي عائشة كان صوتها مرة أخرى يرتجف من شدة التأثر. 'هل تودين أن تكوني هدية مارغاريت في عيد ميلادها الثمانين؟'

فقد أراد كل من ريتشارد ونانسي وديبرا أن يقدموني هدية لأمهم مارغاريت في عيد ميلادها الثمانين.

عندما وصلت إلى مطار JFK في نيويورك، وجدتُ ريتشارد ونانسي وديبرا في استقبالي؛ كان لقاء مليئاً بالمشاعرالجياشة . حين مشينا، أو الأحرى ركضنا بعضنا باتجاه بعض، ريتشارد وأنا ، بدأنا نحن الاثنين بالبكاء. تعانقنا وبدأنا بالبكاء والنحيب.

كانوا قد أخبروا مارغاريت بمجيئي قبل بضع ساعات فقط من

وصولي. على الرغم من أنها كانت قد غادرت المشفى تواً، إلا أنها مع ذلك أصرت على استقبالي في المطار؛ بعد رحلة سفر دامت خمس ساعات، وجب عليها الانتظار أيضاً بضع ساعات في المطار. كانوا قد دعوا عائشة أيضاً، التي كانت حينذاك في مدينة أخرى في أميركا؛ احتاجت إلى ست ساعات طيران إلى نيويورك. كانت بيث، زوجة ريتشارد، موجودة أيضاً. يبدو أن تعبيرنا عن مشاعر لمّ الشمل قد شد انتباه الموجودين بالقرب منا في المطار؛ عندما نظرنا حولنا رأينا كيف أننا جذبنا جمهوراً من المتفرجين.

من لحظة تسلمي الدعوة حتى اللحظة التي التقينا فيها في المطار، كنت قلقة ومتوترة. فعلى الرغم من أننا ننتمي إلى العائلة نفسها، لكن كل منا قد نشأ في بلد مختلف، ويتكلم لغة أخرى وينتمي إلى ثقافة مختلفة. بقيت أسأل نفسي كيف سيكون لقاؤنا: هل سيكون حميماً، هل سنستطيع فهم بعضنا بعضاً؛ لم أتمكن من إغماض عينيّ قط خلال رحلة الطيران.

بعد أن عبرنا مكتب تدقيق الجوازات والجمارك ونحن متجهون إلى خارج المطار لاحظتُ بأنني كنتُ أتصبب عرقاً. كانت النداوة تسيل على رقبتي. لكنني حاولت تمالك نفسي بتذكيرها بأن عائشة ستكون موجودة هناك؛ كانت كالمنقذ بالنسبة لي.

في لحظة عبوري الباب، سمعت صوتاً نسائياً ناعماً آتٍ من الجهة اليسرى للفاصل الحديدي، ينادي اسمي. عندما أدرت رأسي

شاهدت بيث وهي تتقدم نحوي، بابتسامة حميمة كدفء صوتها. استطعنا التعرّف إحدانا إلى الأخرى من خلال الصور التي تبادلناها سابقاً. لم نتمالك أنفسنا حتى وصولنا إلى نهاية الحاجز الذي يفصل القادمين الجدد عن المستقبلين، فتعانقنا بشوق. كانت الخالة مارغي على يمينها. بينما كنا نبكي ونحن نتعانق، لمستْ رقبتي وقالت 'هذه سمة عائلتنا. هذه العائلة تتعرق من الجزء الخلفي من الرقبة.' امتزجت ضحكاتنا مع دموعنا، ومن تلك اللحظة تلاشى كل قلقي وشعرت بالراحة.

في اليوم نفسه، ذهبنا إلى نيوجيرسي لزيارة قبر والديّ جدتي. أردت شراء بعض الورود، لكن أغلب المحال كانت مغلقة فالشمس كانت قد شارفت الغروب. أفضل ما استطعت العثور عليه من الورود، كانت زهرية اللون، فاشتريت باقتين: كان رفات هوفانيس وإسكوهي موضوعين في القبر نفسه.

وأنا أضع الورود على حجر القبر، طلبت المغفرة من جدتي ومن كل عائلتها، باسمي وباسم الذين تسببوا بألمهم الذي لا يوصف.

كانت الخالة مرغي، كأختها الكبيرة (جدتي)، تحب الطبخ والاحتفاء بالضيوف. لقد تذوقنا خلال الفترة التي قضيناها معاً، أنواعاً من الأطعمة تضاهي وجبات الملوك، وتحدثنا ساعات متواصلة. وبين حين وآخر كنا نتعانق ونبكي. أمسكت الخالة مارغي يدي وشدت عليها بحزم، وقالت وهي تشير إلى الأعلى وتحاول أن تواسيني: 'إنها ترانا، وهي فرحة جداً، صدقيني.'

أهديتُ إلى الخالة مارغي ثوباً من القماش المطرز بالحرير وليفة حمام كانت جدتي قد نسجتها بيديها. تناولتهما بحنو كما لو أنها خائفة أن تؤذيهما. فتحتهما وتفحصتهما بحنو وإعجاب، ثم أعادت طيهما بعناية، لقد كررت ذلك غير مرة. وطوال الوقت كانت تئن أنيناً مسموعاً. كنا جميعاً معها - ريتشارد، بيث، نانسي، ديبرا، زوجها مايكل، عائشة وأنا. كما لو أننا كنا قد اتفقنا مسبقاً، انسحبنا متراجعين إلى غرفة الجلوس لنحزن على طريقتنا، لتبقى وحدها مع روح أختها الكبرى.

كان لدي أسئلة كثيرة أود طرحها على الخالة مارغي، ولكي لا

أنساها كنت قد دونتها في المساء، وكلما سنحت الفرصة أمطرتها بالأسئلة. والعبء كله كان يقع على عائشة كونها هي التي تقوم بالترجمة على مدار الساعة. لم تكن الأسئلة باتجاه واحد فقط ، كانت هناك في المقابل أشياء كثيرة جداً أرادت مارغي وأولادها معرفتها مني، أيضاً.

في صباح أحد الأيام أثناء وجودنا في المطبخ، بعد الفطور، قالت الخالة مارغي، 'كانت هذه هي أغنية هيرانوش،' وبدأت بدمدمتها. استطاعت تذكر اللحن، لكن دون كلمات.

حاولتْ قدر استطاعتها، لكنها لم تتمكن إلا من تذكر السطر الثاني: 'يعزف أغنية الحب.' فجأة تذكرتُ الأغنية الوحيدة التي سمعت جدتي ذات مرة وهي تدندنها في الفترة التي تلت إخباري إياها بأنني سأعاود الاتصال بأخيها. الآن أتساءل فيما إذا كانت هي نفسها الأغنية التي تدندنها. ذكرت ذلك الخالة مارغي. صمتتْ، فكرتْ، وقالت، 'قد يكون.'

حاولتْ مارغي تذكر بقية الكلمات، لكن دون جدوى. اتصلتْ ببعض أصدقاء الطفولة، لم يستطع أحد منهم مساعدتها في ذلك. لكن الخالة مارغي لم تستسلم. اتصلت بجوقة الكنيسة. سيدتان من هذه الجوقة تذكرتا الأغنية التي تدور حول راعٍ.

هينغالا
انطلق الراعي الحزين يجوب الجبال
يعزف أغنية الحب

أغنية للخدود المشتعلة
أغنية للعيون المحترقة
أغنية لأيام البهجة القادمة
آه أيها الراعي الفقير
ستجوب إلى الأبد
الأفلاج والوديان العميقة
هينغالا، هينغالا
أغنية لخدود مشتعلة
أغنية لعيون محترقة
أغنية لأيام مبهجة قادمة
ها هو الربيع قادم
يحضر وروداً منعشة
وروداً تشع ألواناً
أحبها 'هاه هاه هاه'
وروداً تشع ألواناً
آه أيها الراعي الفقير
ستجوب إلى الأبد
الأفلاج والوديان العميقة
هينغالا، هينغالا
أغنية لخدود مشتعلة

أغنية لعيون محترقة

أغنية لأيام مبهجة قادمة

تقول الخالة مارغي: 'لم تتغيب أمي قط عن أفراح القرية: كانت تحب الدبكات، وكانت تؤديها بشكل رائع. لكن بعد المآسي التي مرت بعائلتها، لم ترقص البتة'. سألتها في ما إذا كانت تجيد الدبكات. قالت 'نعم، أستطيع ذلك'. طلبت منها أداء بعض الخطوات إذا كان ذلك ممكناً. لم تخيب أملي؛ متكئةً على الطاولة، وقفت على قدميها. قالت: 'هذه تدعى الهلايا' وبدأت بالرقص. فقفزتُ من كرسيي وركضت إلى جوارها، ووضعت ذراعي على ذراعها ورقصنا الهلايا معاً في المطبخ.

في اليوم الذي سبق افتراقنا، اجتمعت العائلة على مائدة الوداع. في لحظة معينة خلال تناول الطعام، قال ريتشارد، 'أعتقد بأنني كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري عندما سمعت لأول مرة ماذا فعل الأتراك بالأرمن. طوال حياتي كنت أخاف من الأتراك. لقد عشت على كراهية عميقة باتجاههم؛ إنكارهم جعل تلك الأمور أسوأ. ثم اكتشفتُ بأنكِ جزء من عائلتنا لكنكِ تركيّة في الوقت نفسه. الآن أحب كل أجزاء هذه العائلة الكبيرة ومتشوق للقاء بقية أولاد خالتي ومشاركتهم في الموسيقى. لكنني ما أزال أكره كل هؤلاء الذين ينكرون ما حدث؛ لن أسامح هؤلاء الناس أبداً.'

* * *

اشترت الخالة مارغي هدايا لكل من أختي وأخي وبنات وأبناء خالاتي. وبينما تقوم بتسليمها لي، قالت: 'لدي رغبة شديدة في رؤيتهم، لكن حالتي الصحية في تدهور مستمر، ربما لن تسمح ظروفي الصحية بالقيام بذلك – أتمنى أن يفكروا في عند تسلمها.' لقد اشترتْ لهم جميعاً هدايا رائعة ومستدامة، وأرفقت كل واحدة منها بكلمات بخط اليد.

ثم قالت، 'نحن عائلة واحدة'، وتمنت، نحن الذين التقينا بعد كل هذه السنين، أن نبقى على تواصل من الآن فصاعداً. تعاهدنا على ذلك جميعاً، وبعدها رفعنا كؤووسنا وشربنا نخب كل أفراد عائلتنا.

هناك الكثير مما كُتب ولم يكُتب عن المآسي الاجتماعية التي خلفتها المجازر التي تعرض لها أرمن الدولة العثمانية في بداية القرن الماضي، لكن ما يميز المأساة التي يعرضها هذا الكتاب هو إكراه الطفلة هيرانوش على العيش بالقرب من مكان المذابح التي شهدتها بأم عينها، التي أودت بحياة معظم سكان قريتها والقرى المحيطة، فضلاً عن تغيير اسمها إلى (سهر) وحرمانها من إعلان هويتها الحقيقية.

لكن مع ذلك لم تكن هيرانوش (سهر) تشتكي من ذلك بقدر شوقها إلى لقاء من تبقى من أهلها الذين اكتشفت، بعد أكثر من عشر سنوات، بأنهم قد وصلوا إلى حلب، لكنها مُنعت من مجرد زيارتهم؛ ورحلت عن عمر يناهز الـ ٩٥ من دون أن تتمكن من لقاء أحد منهم.

أما المعاناة الكبرى التي لم يلحظها أحد فهي أنها تحمّلت بمفردها هذه الآلام، التي تعجز الجبال عن حملها، لمدة ٦٠ عاماً. إذ إنها لم تجرؤ بالبوح عنها إلا بعد بلوغها سن الشيخوخة وإدراكها أن العمر يسير إلى محطته الأخيرة، فشاركت جزءاً من هذه الحمولة مع حفيدتها، فتحية جتين، لعلها تستطيع العثورعلى من تبقى من أهلها واللقاء بهم قبل أن يباغتها الأجل.

ولدت فتحية جتين في مدينة مادين التابعة لمحافظة إليزه في تركيا في عام ١٩٤٨؛ وقد حصلت على دبلوم إعداد المدرسين وعلى إجازة في الحقوق من جامعة أنقرة. تعرضت للاعتقال والسجن لمدة ٣ سنوات بعد الانقلاب العسكري في ١٩٨٠.

فتحية محامية وناشطة معروفة على المستوى الدولي في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان منذ أكثر من ٣٠ عاماً. كما أنها المحامية الأساسية في قضية الصحفي الأرمني-التركي هرانت دينك الذي تم اغتياله في ٢٠٠٧. وهي أيضاً مسؤولة المكتب القانوني لمؤسسة هرانت دينك الثقافية أمام المحاكم التركية ومحكمة حقوق الإنسان الأوروبية.

تلقت عدداً لا يحصى من التهديدات بالقتل، وضعت إثرها تحت حماية أمنية مشددة في تركيا منذ خريف ٢٠١١. وبسبب تزايد الخطر على حياتها، نصحها أصدقاؤها بمغادرة البلاد ولو موقتاً، فغادرت إلى برلين في بداية ٢٠١٢، ظلت زميلة زائرة في منظمة القلم العالمية ضمن برنامج كتّاب في المنفى، ومن ثم عادت إلى تركيا.


ISBN-13: 978-614-485-090-9
9 786144 850909